

نَفَائِصُ الْفَلَسَفَةِ الْعَرَبِيَّةِ
مديرها الدكتور عثمان أمين

أَفْلَاطُونُ

تأليف
أوجست ديسين
تقريب
محمد اسماعيل

مطبعة القلم والمحرر
دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

نبذة عن المؤلف أوجست ديس

ولد أوجست ديس ببلدة مانس بفرنسا عام ١٨٧٥ وتلقى تعليمه بالمدارس الدينية ، ودرس الفلسفة وأصبح أستاذاً لها بالكلية الكاثوليكية بفرنسا . وقف المؤلف جهوده على دراسة أفلاطون وفلسفته وآثاره حتى أصبح حجة في هذا الباب . وتمتبر المحاورات والمؤلفات التي حققها ونشرها مصادر يوثق بها ويعتمد عليها . فقد نشر كتابه « تعريف الوجود وطبيعة المثل في محاورة السوفسطائي لأفلاطون » La définition de l'être et la nature des idées dans le Sophiste de Platon (طبع الكان عام ١٩٠٩) . كما نشر في نفس العام كتاب « الدورة الصوفية » Le Cycle Mystique (طبعة الكان) . ونشر من محاورات أفلاطون « برمنيدس » سنة ١٩٢٣ و « تيتاوس » سنة ١٩٢٤ و « السوفسطائي » سنة ١٩٢٥ وقد ظهرت كلها في مجموعة جيوم بوديه . ثم نشر في عام ١٩٢٧ مؤلفاً ضخماً في جزئين عن أفلاطون أسماه « حول أفلاطون » Autour de Platon . أما الكتاب الذي ترجمته فقد نشره عام ١٩٣٠ ضمن مجموعة من الكتب ألفها كبار المؤلفين وأصدرتها إحدى دور النشر الفرنسية تحت عنوان « فطاحل المفكرين » Les grands coeurs . وقد ساهم الأب أوجست ديس في مجموعة البحوث

التي نشرها بول تانري بعنوان « تاريخ العلم الهيليني » Paul Tannery (pour l'histoire de la science hellénique) انظر الطبعة الثانية باريس سنة ١٩٣٠) . ثم نشر مقدمة لجمهورية أفلاطون قدم بها للترجمة الفرنسية التي أنجزها الأستاذ شامبري Chambry (مجموعة جيوم بوديه سنة ١٩٣٣) كما أعد الطبعة الثانية لكتابه « تعريف الموجود الخ . . » (مكتبة جوتييه فلارسنة ١٩٣٢) . وقد تولت إخراج هذه الكتب جميعاً كبريات دور النشر الفرنسية .

هذا وكنت أود أن يخرج هذا الكتاب مصدراً بنمذة عن حياة المؤلف ومقدمة خاصة بالطبعة العربية يكتبهما أوجست ديس" نفسه ، فأرسلت إليه في يناير الماضي أستأذنه في النشر وأطلب منه ذلك ، ولكن وللأسف الشديد لم يصلني رد حتى الآن ، وأرجو أن يكون المانع خيراً ما

المعرب

ابريل سنة ١٩٤٧

البيئة العقلية

١ - المراض

إلى الطريق المار خارج السور وعلى مقربة من الباب المستور حيث تقوم نافورة بانوب ، يخرج الأطفال من المراض زرافات . الشمس قد جنحت للغروب ، والمعلمون يسوقونهم أمامهم بإشارات تم عن اللهفة والقلق ، وفي أصواتهم من البحة والرجز ، وفي ألسنتهم من الثقل ما يزيد من حوشية اليونانية التي يدندون بها . وهؤلاء هم الأطفال يخالس بعضهم بعضاً النظار ، خافضى الرأس كتماناً لضحكاتهم . إنهم يعلمون حق العلم بأن عبيدهم المسنين قد شربوا اليوم في أعياد هرمس . وهم يغذون السير مع ذلك ، يتبعهم صبية يكبرونهم يتحدثون ويجادلون في حرارة ، وقتيان وشبان يتوسطهم رجال هنا وهناك .

ها هو ذا البهو الداخلى ، حيث تمارس التمرينات الرياضية ، قد خلا من رواده . ولكن جماعات من الرجال والشباب لا تزال هناك تحت الأروقة ، وثمة عبارات مسهبة تقررع الأسماع كأنها ضوضاء ذات انسجام ، تنتفخ وتعلو تارة أو تتمطى تارة أخرى ، ويقطعها التصفيق بين الفينة والفينة ، وحيناً تكون 'جلاً قصيرة تصادم وتتقارع حادة كالسيوف ، مثيرة هتافات حماسية وعواصف من الضحك . منظر وايم الله ، قد استهوى نفوس الفتيان اليوافع

الذين انسلوا متدافعين وسط صفوف المستمعين ، ناسين الساعات وهي تمر ،
مرددين فيما بينهم ، أسماء من اختابوا حب استطلاعهم .

وهناك جمع من السفسطائيين الغرباء ، أتوا كمادتهم ليدلوا بعلمهم
وبلاغتهم أمام الآثنيين . فهذا الرجل الذي يبدو كالمحموم ، ذو الصوت الخفيض
والإشارات التعليلية الدقيقة هو العالم بروديكوس المولود في إيوليس ، بجزيرة
خيوس ، وهي مدينة قريبة جداً ، وما أكثر ما حظيت مراضات أثينا بزياراته .
أما هذا الآخر ، الرافل في أثواب زاهية ، ذو المنطقة الذهبية الذي يتعمل كي
يلفت إليه الأنظار ، فهو هيبياس من مدينة إيليس ، هيبياس الجميل ، الذي
يشيد البعض بتبحره في الرياضيات ؛ ولكنه هو يتباهى بأنه يعلم كل شيء
ويعلم كل شيء . إن فيه خليلاً فاضحة ساذجة ، وجلافة فلاح ، تحول ادعاءه
ضحكاً يثير المرح في جمهوره الشاب .

وهناك غريبان آخران يبدو أنهما يتناوبان إرهاق فتى بالأسئلة ، والفتى
مضطرب لا يحسن كتمان غيظه . وقد جلس إلى جانبهما رجل قصير القامة
بدن أصلع أقنى الأنف ذو عينين شراوين تعرفه المراض بأسرها ، لأنه
أليف في كل الأماكن التي يؤمها الشباب ، وهو أحد الآثنيين النذر الذين
لا يزاولون من الصباح حتى المساء غير هذه المهنة ، مهنة السفسطة . إنه
سقراط ، من مقاطعة «ألوبيس» . وهو اليوم في صحبة رجلين لم يعد الناس يراها
معه كثيراً منذ حين . لم يتجاوز أحدهما الثلاثين ، هادئ في جلسته . والآخر
يكبره جسماً وسناً وله نظرة حادة شاحخة ، وتراه ينهض بين حين وآخر في

حركة مفاجئة وكأنه متأهب لاستجواب الشخصين دفاعاً عن الفتى الذى يرهقانه بأسئلتهما . ولكن سقراط يشير إشارة تهدئة ليمنع تدخله ، بينما يشجع الفتى الثابت الجنان فى هدوء ورقة . فيحمر الفتى خجلاً فى أول الأمر ثم يستعيد هدوءه فى شىء من الجهد ، وفى نظرة باسمه إلى سقراط يلتفت إلى السفسطائيين ، متهيباً لتلقى السؤال الخادع الذى سيلقيه الواحد أو الآخر .

أما صاحباً سقراط فهما خرميدس وإقريطياس ، من أقرباء أفلاطون الصبي الذى انسل بين المجتممين ، ووقف مستنداً إلى كاهل خرميدس ، مظهرأ سروراً لا حد له مما يشاهد فى هذا المنظر الهائج . وكم من مرة تملى بمثل هذه المناظر ، وخاصة منذ أن خرج عن ولاية معلمه وأذن له فى أن يتجول مستطاماً حول المراض ، بعد وثب أو سباق أو ملاكمة ، تحت إشراف أحد اخوته أو خاله خرميدس ، فى أكثر الأحيان . وقد مدت سنته الثانية أو الثالثة عشرة من أعضائه وقسماته ، ولو أنها قد أبقت على نظراته الصافية ودهشاته العذبة ، وحب استطلاع المتأهب دائماً المتجدد أبداً ، شأن الطفولة .

كل شىء لا يزال عنده لهوآ : فى السوق ، مناظر خيال الظل ومفاتيح الساحر وتهاويله ؛ وفى الشارع ، صرخات العامة ونداءاتهم ، واختلاف الألوان وضجيج الإشارات ، والحمير السفهاء التى تسير قدماً مصطدمة بكرام الناس ؛ وفى الملاعب ، الجو المثير الذى يبدو فى التمرينات وفى الأجسام الشابة الممتدة كجسمه فى جهد لذيذ ، والتوقيعات المنسجمة للمواقف والحركات ، ثم التراخى والأحاديث والضحكات ، على هيئة جماعات ، بين شبان يوافع ، أو منظر معركة

خطابية أو جدلية ، ولكنه لم ير حتى الآن من كل هذه الممارك العلمية إلا ظاهرها ، غير أن بعض الألفاظ قد أثار في نفسه أصداء ، كما أن هذه المعركة الكلامية تصير أحيانا حادة لدرجة أنه يشاهدها ويتابعها في لهفة وجد ، وكأنها معركة حقيقية . وقد قربت الساعة التي سيعلم فيها ما لهذه الممارك الفكرية من أهمية حيوية : أليس ابننا من أبناء أثينا التي تعالج فيها السياسة في وضوح النهار ، وتظل ممتزجة بالهواء الذي يستنشقه أهلها ، كما أن أسرته من أعرق وأجود ما بها من أسر ؟ لقد كانت السياسة دأغا بالنسبة إلى جميع عشيرته ما هي صائرة إليه الآن بالنسبة إلى كل مواطن حر ، أعني رسالته الفطرية الأولى ، والنشاط الوحيد الذي يُسمح له بنشدانه .

٢ — الأسرة والمدرسة

ولد أفلاطون عام ٤٢٧ في عهد ديو تيمس وكان لا يزال في مستهل الطفولة حينما توفي والده اريستون ابن أورستيكليس تاركا وراءه اثنين آخرين يكبران أفلاطون وهما اديمنتس واغلقون وفتاة تدعى فوتوني . أما والدته افريقطوني فقد وفقت إلى الظفر بزواج عاشت في كنفه ، ألا وهو قريبها بيريلامبس صاحب الطيور الذي ارتفع إلى الشهرة بفضل ما كان يقوم به من سفارات ، وكذلك بفضل الطواويس التي حصل عليها أثناء مقامه ببلاط ملك الفرس . هذا ما أحاط طفولته من مجد حاضر وماض لأسرته من أمه . وأغلب الظن أنه قد تراءى إلى سمعه ذلك النسب الشهير الذي تبادلت فيه أسرة دوروبيد وأسرة

أقربتياس التزواج منذ قرون خلت وليس من شك في أن رأس الفتى طالما اختلطت فيه الأصلاب .

ومهما يكن من شأن افتخاره بمله أنه منذ مائتي سنة على الأقل لم يتخلف أسلافه عن أعلى المراتب ، فلم تكن ولاية أمثال دروييد في منتصف القرن السابع أو ولاية أقربتياس حوالى القرن السادس لعمتبر أوضح ما سجلته ذاكرته . فقد اهتز قلبه الفتى بذكريات أخرى : إذ خلد سولون الشهير ، أحد أقربائه وصديق دروييد القديم ، مفاخر العائلة في أشعاره . وبقى الشاعر المرح انكريون صاحب حظوة في بلاط هيباريخوس بفضل صلته الطيبة بأحد أفراد أسرة أقربتياس أو بفضل سخاء هذا الطاغية والذي كان أحد أجداد أفلاطون إذ كان جداً لأمه أفريقطوني كما كان في الوقت نفسه جداً لصديقيه وحاميه أقربتياس وخرميدس .

وما إن انتهى أفلاطون من حضانة النساءه حتى انتقل بطبيعة الحال كجميع الأطفال من أمثاله إلى رعاية عبد مسن كان بقوده إلى المدرسة . وقد تعلم أولاً كيف يحسن هندامه ويجلس وينهض ويمشي معتدلاً ، وكيف يتغنى بأناشيد وُضعت تمجيداً لمدينته . ثم تلقن من بعد الكتابة ومارس القراءة بطريقة الإنشاد على الدوام أو بمحاولة تتبّع ورسم الحروف التى خطها مؤدبه على اللوحة وقد وضعها على ركبتيه خاطئاً عليها بقلمه . واستطاع من بعد أن يكتب ما يعلى عليه من قصائد كبار الشعراء وأن يسمع شروحه وأن يحفظها عن ظهر قلب فرأى ماثلة أمام عينه تلك المملكة الساحرة حيث كانت تنبثق في كل خطوة

مفاتيح جديدة . كانت أولا المعارك التي دارت حول اليون ، ومغامرات اليوسوس وحكمته الداعة، فأنساب الآلهة المسيطرين على السماء ثم الريف والبحر والأيام الصالحة للبذر والرياح المساعدة للإبحار قرب الساحل إبحاراً مشمراً وجزاء العمل وثمار العدل الطيبة . وبعد أشعار هوميروس وهزيبود تأتي مرثي سولون المذبة ، أو جمل تيوجنيس الميغاري اللاذعة . وفي هذا الجو من الحكمة الإلهية والحقيقة الإنسانية تفتحت وقويت نفسه . وثمة أساتذة آخرون علموه القيثارة والمزهر ، وأولع قلبه بأناشيد تيرتي العسكرية بينما كان يتعلم كيف يشكل مواقفه وإشاراته حسب التوقعات المذبة للألحان والرقص ، وكيف يهب جسمه مرونة بواسطة تمرينات المراض .

وكان كلما تقدم في طور البلوغ وجد أساتذته الحقيقيين خارج المدرسة . وأول هؤلاء خاله خرميدس وابن عمه اقريتاس . أما خرميدس فكان من شأن طبيعته المهادنة وما طمّيع عليه من تحفظ ألا تتاح له غير الأدوار الثانوية . وكان له بمثابة الصديق الصدوق الذي يستعين به كما يستعين بخير طبيعي في غير تحفظ ولا التفات . وقد استطاع أن يحكم الرأي فيه فيما بعد : إذ هيأت له التجربة تقدير هذه الحكمة المترددة شيئاً التي سنجدها لديه من بعد في تاطيفه من حدة المخاطر البالغة حد الجرأة دون أن يخفف من حدة إخلاصه . ولكن أي سحر وروعة كانت لشخصية قوية جبارة كشخصية اقريتاس في نفس هذا الطفل ذي العقل الحاد ، والخيال الجامح ، والرغبات التي لا تعرف بطبعها حداً ولا نهاية . كان لاقريتاس القديم صديق انكريون ، ولدان هما

كاليسكريوس واغلقون أما صاحبنا اقريتياس ابن كاليسكريوس فقد كان يكبر
 كلاً من خرميدس وافريقطوني أبناء اغلقون قرابة عشر سنوات . وقد تولى
 وصاية خرميدس الذى ظل له تابعاً مخلصاً على الدوام معجباً به أبداً . وكان
 كاليسكريوس مفرطاً فى الثراء فتمكن ولده فى سن مبكرة من أن يختلط
 بالشباب الزاهر الذى أدهش أثينا ، كما جلب إليها العار ، تحت لواء القبيادس
 الجميل . ولم يكن اقريتياس مجرد صديق لهولالقيبادس إنما جعلت منه نبأته
 ندأ لابن أخى بركليس (القبيادس) . وإن لم يكن على نفس القدر من المرونة
 أو الجاذبية الفذة التى أحببها أثينا حيناً ونقمت عليها حيناً آخر . فإن روحه
 كانت مشتعلة كروح القبيادس . وكان حب استطلاعهم العقلى أعمق وأشد
 صلابة .

تتبع كل منهما دروس سقراط ودروس السفسطائيين ولكن القبيادس
 الذى تفتحت أمامه سبل الحكم من تلقاء نفسها هرول خلالها بكل جوارحه ،
 ولم يطلب من بلاغة العصر وفلسفته إلا القدر الذى يكمل به قدرته الفطرية
 فى التأثير على الناس . أما اقريتياس فقد عض على ناجذيه من غير شك ولكنه
 شغل أوقات فراغه فى الاستزادة من العلم ، وفى التحضير فى أعماله الأدبية
 كذلك . فرافق جورجياس الليونتيومى أستاذه فى الخطابة إبان مقامه بتساليا
 وأفاد من مقامه هنالك فدرس نظام تلك البلاد السياسى . وعنى كذلك بدراسة
 دساتير اسبرطه وأثينا دراسة مقارنة . هذا ، ولم تصرفه عنايته بالسياسة عن
 مطالعته الأدبية إذ كان الأدب نفسه من جهة أخرى منبراً بالنسبة إليه .

فكان له أسلوب كبار الأساتذة ، أسلوب سلس واضح وإن لم يخلُ من حدة في الوقت المناسب . كان يتحدث به دون اضطراب ، في لغة بسيطة مترنة ، لغة المجتمعات الراقية ، عن الأشياء التي تعد على درجة كبيرة من الخطورة . لقد عرف كيف ينظم الرأي ويؤلف المآسى التي كان ينطق فيها شخصيات لا تقل قدرة على التفكير عن شخصيات يوروبيدس ، بأفكار العصر وآماله ، مما جعل الناس في المجتمع ينظرون إليه كمفكر ؛ فتردد عليه السفسطائيون والشعراء مزهوين بأن يجدوا في هذا الفتى النبيل الطموح السخى تلميذاً أخرى من أن يكون منافساً . ولقد تدلل أفلاطون على خاله خرميدس ، ولكن اقربتياس الذي كان يعلم كل شيء والذي كان أليفاً حيث حل ، والذي أكد وحكم في حماس المتلهف الشهوة التواقفة إلى القوة ، والذي اقترب بحمية وقوة من سحر الأدب الجميل ومن الشعر (أقول كان اقربتياس) له رائداً وأستاذاً إبان عهد المراهقة .

٣ - السفسطائيون

تلك المراهقة التي لم يموزها أحد من المعلمين . فهم من أطلق عليهم عندئذ اسم السفسطائيين أو الحكماء قد تنافسوا في عرض أنفسهم على جمهورهم الفتى هناك حيث لا يشكّون في وجوده ملتئماً أعنى في المراضات وفي الملاعب . فكانوا يختلطون في مجتمع الهواة والأقارب أو الأصدقاء ينتهزون أقل مناقشة ليطسوا عليهم وحققهم فيبدأون بحصار الناضجين من زبائنهم موقنين من

إحراز دعاية مشمرة من وراء ذلك . وحالما يبدو الشبان يشيدون بنبوغهم ويسألون عن أسمائهم وعن أسرهم ويجدون دائماً الفرصة لاجتذاب انتباه البعض منهم ويسوقونهم إلى الحديث ويستدرجونهم بوعود خلافة . وقد يهرعون إلى هنالك أحياناً يتبعهم موكب مختلف المهابة يتألف من طلبتهم المنتظمين . فيتجولون في الأروقة أو يتابعون وهم جلوس وسط حلقة من المعجبين خطبة براقة أو مناقشة حارة لا تخلو من أن يشترك فيها عدد لا بأس به من أيفاع محبي الاستطلاع . ثم يأتي اليوم إن عاجلاً وإن آجلاً وقد أصبح هؤلاء المتطلعون المتواترون طلاباً منتظمين . يألفون في هذه الأثناء وجوه مشاهير السفسطائيين ويمتادون طرائقهم فيتناقشون حول قيمة كل ويقلدون حركاتهم وعباراتهم المشهورة . ويتذاكرون فيما بينهم الأثمان التي وضعها هؤلاء الأساتذة المرغوب فيهم قيمة لدروسهم ، ويرددون أسماء زملائهم بالأمس أولئك الفتية الذين أسمدهم الحظ والجاه بالاختلاف إليهم . ويعودون من المراض إلى المنازل وقد امتلأ كل منهم بهذه الضجة فيحيطون آبائهم بأخبارهم ولجأهم . فتمسى المدينة وقد اهتزت بالحماسة التي أثارها التعليم الجديد .

انبثق هذا التعليم طبيعياً بحكم الضرورات التي أوجدها ظهور الديموقراطية في المدن اليونانية وخصوصاً انتصارها النهائي في أثينا . فالتربية القديمة التي كونت من انتصروا في مراتون ويلاتيه بدت قاصرة يوم لاحظ كل فرد أنه لكي يصبح والياً أو قائداً أو لكي يظفر بأية سلطة كائنة ما كانت أو يحتفظ بها كان لابد له أن يعرف كيف يكتسب ثقة الشعب المسيطر عن طريق

ذلك الذى لعله أن يكون المغرى دائماً لكل الجماهير والذى كان شديد الأغراء بالنسبة إلى الجمهور اليونانى على وجه الخصوص : أعنى الكلام الرنان البارع . فلم يكن مغنياً فى هذا الصدد أن يكون المرء قد تعلم حسن اللهجة وطيب الخلق وشيئاً من النحو أو أن يكون قد عرف أعمال فطاحل الشعراء من حكمة عميقة وعبارات دقيقة إنما كان الواجب أن يكون فى مقدوره الكلام فى كل حين وعن كل موضوع أمام قضاة شديدي التأثير . ولعل الخضم أن يكون قد ظفر بهم من قبل أو على الأقل قد حاول منذ قليل أن يستولى عليهم ليجذبهم إلى جانبه . فكان من الواجب عليه إذن أن يكون قد حصل معارف متنوعة وأن يجمل فى متناول يده بوجه خاص خزانة من الحجج توصل إلى جميع الغايات وأن يكون له من حضور البديهة ما يمكنه من استثمارها بأن يكيفها تبعاً للظروف وتبعاً للجمهور . أما الأساتذة الذين كانت تتطلبهم الظروف فقد كانوا يتقدمون بأنفسهم .

وُجد دائماً منذ عهد هوميروس وهيزيود وإكسينوفان منشدون أو مغنون متجولون يسمون أنفسهم الشعراء المنشدون يفدون على قصور الملوك والطلافة . ثم أخذوا يذهبون فيما بعد إلى أسواق المدن التواضعة فى أيونيا أو اليونان أو صقلية يرتلون أشعارهم أو يرددون الروائع الكلاسيكية . أما المتأخرون من أحفاد هؤلاء الشعراء فلم يحسنوا التسلح لمواجهة سيطرة النشر وربما كان مآل ذكركم إلى الزوال بغير رجعة لو لم يستدعهم خاصة الواقع المؤلم للمشاحنات السياسية والاجتماعية إلى الحياة ثانياً وإلى الازدهار فى ثوب

محاضرين جائلين وأساتذة أحرار للخطابة . فعادوا يجوبون المدن اليونانية ينقبون عن المجد والثروة مثلهم في ذلك مثل أسلافهم . ولكن أياً ما كان المكان الذي أتوا منه ، سواء أ كانوا من تحاليا أو من إيطاليا الجنوبية أو كانوا من صقلية وإيليس وأولبيا أو من ديلف فإنهم قد عجموا جميعاً شطر أثينا - « المحبة بطبعها للخطب الزاخرة بالكلام » ، إذ كانت تنطق بلغة سلسلة واضحة أصح ما تكون لأن تصبح لغة متوسطة بين اللهجات اليونانية الأخرى قابلة دون مشقة لأن تتكيف تبعاً لجميع دقائق التفكير ووفقاً لكل حدة في الأفعال . كانت أثينا أيضاً في أوج علوها حوالى منتصف القرن الخامس وقد كفل التوازن الذى وصلت إليه الحكومة الشعبية وقتئذ الحماية والحرية على السواء لكل القوى المجددة . إلى هنالك ذهب سنة ٤٤٤ بروتاغوراس ، هذا السفسطائى البارز من مدينة إبيديرا فى تراقيا ونعم بالحظوة لدى بركليس الذى ناط به لإيجاد دستور لمستعمرة توريو التى تأسست على أنقاض مدينة سيبارس . وطالما تردد على هذه المدينة . فكانت أنبل الأسر تفخر باستقباله وأخذت تفتح أبوابها على مصراعيها لمستعميه المشوقين ؛ وكان خبر حضوره يجعل النشوة تسرى فى الفتية . وكانت الإشاعات التى يطلقها حول المبالغ التى يكتسبها من جولاته للمحاضرة بمثابة إعلان الأول : أفلم يذهب الناس بعد وفاته إلى حد القول بأنه اكتسب من النقود أكثر مما اكتسبه فدياس وعشرة نحاتين آخرين معاً ؟

أما جورجياس الصقلى فقد عرفته أثينا لأول مرة كسفير أرسله مواطنوه

من بلدة ليونتيوم صيف عام ٤٢٧ استنجد آ بها ضد سراقوزة. وكان قد أشرف على الستين . وكان لجلال مظهره وفخامة ملبسه وعلى الأخص لانسجام كلامه انسجاماً رقيقاً وفخامة هذا الكلام البراقة بعض الشيء ، كان لهذا كله نجاح باهر . وعلى الرغم من أنه قليل الحظ من الجدل إلا أنه كان فناً كاملاً فاستطاع أن يخاق لنفسه أسلوباً خاصاً عني فيه بالكلمات الخارجة عن المؤلف وموقفاً توقيعاً ملئاً بالطباق والجناس فكان يحيط بهذا الرنين أكثر الأحاديث ابتداءً فيقصر الانتباه على جماله الرنان. ثم أصبح هذا النوع من البلاغة وحياً للآتينين وسرعان ما صار الأسلوب الجورجياي بدعاً سائداً .

وأتى بروديكوس هو الآخر من كيوس بصفته سفيراً وكان رجل (التدقيقات) : إذ كان مشهوراً بعمله بالمتراذفات وبالذقة المتناهية في لغته . كان هو وهيبياس عدلين قريباً وكانا من جيل متأخر عن بروتاغوراس وجورجياس. أما ترازيمachus الخلق دوني فقد أتى في بتيانيا وهو مؤلف كتاب «الفن الكبير» وكان بارعاً في اللامب بالمواطن . وكم من آخرين يقولون شهرة عن هؤلاء ولكنهم لا يقولون عنهم ادعاء قد تمثروا في أخايد كبار السفسطائيين يتلقطون نصيبهم من المجد والمال . وفي أثينا حيث كان التعليم مسألة خاصة تراقبها الدولة عن بعد وكان لا يزال أولياً جداً إلى ذلك الحين، نشأ هكذا فجأة نوع من التعليم العالي في صورة محاضرات المعرض أو دروس خاصة سرعان ما شاعت . ولما كان هذا التعليم قد أوجد لإعداد شباب يحيا حياة مواطنين منتجين لم يجد أفضل من أن يزودهم بثقافة عامة سريعة بقدر ما هي براقة ؛ تمرين صوري صرف

وليس ثمة من مثل أعلى آخر في عرف الفضيلة السياسية والمدنية ، غير معرفة الكلام بنجاح في المحاكم والمحافل .

وحيثما بلغ أفلاطون طور البلوغ كان بروتاغوراس قد مات منذ عدة سنوات . وبعد أن جاب جورجياس اليونان بأسرها ظل في لاريس بتساليا حيث توفي عن نيف ومائة سنة بعد سنة ٣٨٠ بعد أن عرف كل الانتصارات وكان قد تجنب بكل عناية ، خلال ذلك المجد وتلك الثروة ، كل المشاغل سوى فنه الخاص . ولكن هيبياس وبروديكوس كانا لا يزالان في تمام نضجهما . وهما تلميذا بروتاغوراس وجورجياس وقد حلا محلهما في المهنة وجما من حولهما التلاميذ . وبقدر ما كان حب استطلاع أفلاطون العقلي وتأمله بتزايدان على مر السنين بقدر ما أتيسح له من فراغ يمكنه من أن يتنقل من سفسطائي إلى آخروان يقارن بين تعليمهم ومناهجهم ووسائلهم .

لم يبدأ الشباب منذ اليوم فحسب بدراسة أساتذتهم قبل دراسة محاضراتهم وبالوقوف على جنونهم وبتحديد نزواتهم ولوازمهم في صرامة لا هوادة فيها . فقد قدم السفسطائيون مادة جميلة للملكة الملاحظة اللطيفة عند فتية الآثينيين . وهم مدرسون أحرار مضطرون إلى السعى بأنفسهم وراء جمهورهم فإن أرادوا الاحتفاظ بذلك الجمهور كان عليهم أن يشتركوا في مسابقات حرة غاية في المهارة فكان مفروضاً عليهم إذن أن يقوموا بدعاية مستمرة . ولم يكن من الواجب عليهم أن يكتفوا بأنفسهم حسب مقتضيات الأيام فحسب بل كان عليهم كذلك أن يجددوا فيها وأن يتجاوزوها في شيء من المبالغة أو بشيء من الغرابة الظاهرة

وعن هذا الطريق سمعوا دائماً نحو التأثير أو المبالغة أو الصنعة في اللغة بل وفي الملابس وغالوا في الشذوذ حتى بلغوا به حد الإضحاك . وأخيراً فإنهم لم يبذلوا تعاليمهم دون مقابل نقدي ولقد ظهروا في هذا الباب بمظهر المتباهين والمتشددين فاحتقرهم شباب الأرستقراط الذين كانوا يترددون عليهم ناظرين إليهم كمتجار وباعة متجولين ووجدوا لذة في الانتقام على هذا النحو من غطرستهم ومن دروسهم المرتفعة الثمن التي لا محيص لهم عنها ومن تأثيرهم الذي لا يمكن دفعه .

٤ - روح العصر ؛ الروح العملية

كان هذا التأثير يزداد شدة كلما كانت نفوسهم أساس قيادة وأقل شخصية . هذا ولم يكونوا السفسطائيون مدرسة ؛ فلم يكن لهم على وجه التحقيق مذهب قائم بذاته . بل كان يتردد عليهم فريق مشترك وكانت لهم رغبة متساوية في إرضائهم ومهما يكن من أمر موارد الثقافة وميولهم المختلفة فقد كانت لهم جميعاً نفس الرغبة في إشباع ميولهم الأساسية . فإن المنافسة القائمة بينهم قد قربتهم من ذوق جمهورهم وحاجاته قريباً شديداً . ولم يكن همهم الطبيعي إيجاد أفكار جديدة بقدر ما كان من التلائم والأفكار الموروثة ومن تملك هذه الأفكار بصياعتها في عبارات أبسط وأقرب إلى الذهن أو بالباسا أثواباً أفخم .

فلم يخلقوا الشك بأزاء المذاهب القائمة ولم « ينزلوا الفلسفة من السماء إلى

الأرض» .. فالذاهب قد عُفِيَ عليها بمجرد تعارضها وتناقض بعضها مع بعض وأفنى نقد زينون الإيلي أو تلاميذه : الأجزاء الرئيسية من المذاهب الكونية بعضها ببعض حتى لم يبق منها إلا رماد . وأصبح دور من يريد أن يفسر مايجرى في السماء أو يروى حدوث العالم مضحكا لدرجة أن الهزليين لكي يهزأوا بالسفسطائيين وبسقراط نفسه هزوا لاذعا دون أن يجهدوا أنفسهم في غير طائل لم يجدوا خيراً من أن يدثروهم بهذا الثوب البالي .

عاش هذا الجيل الجديد على الأرض وتحول حب استطلاعهم الذهني إلى هذه الأرض وإلى الإنسان الذي يحيا فيها أي نحو الجغرافيا والتاريخ والطب ودراسة « الأهوية والمياه والأماكن » من حيث تأثيرها الطبيعي والمعنوي ثم نشأة المدن وأصول القوانين والدساتير والفوارق بين الشعوب والاختلاف في العادات والاعتقادات « عقلية البدائيين أو من يعيشون على الفطرة » تلك هي المسائل التي تحدثوا فيها والعلوم التي أوجدوها . وكان إيمان هذا القرن بقدرة الابتكار الإنساني إيماناً لا حد له . هذا الابتكار الذي كان يؤسس المدن ويوطد الشعوب ويبتكر الجماعات والأديان والآلهة .

ولم يكن شك مدرسة ولا قنوطاً ميتافيزيقياً ولكنه كان قبل كل شيء يقيناً عاماً بقدرة الإنسان التامة وهو ما يعبر عنه قول بروتاغوراس : « الإنسان مقياس كل شيء . فهو يعتبر بعضها موجوداً وبعضها الآخر غير موجود » . فإن سنت المدن القوانين فإن هذه القوانين عادلة . أعني لها قيمة طالما رأى

للمدينة أن تحتفظ بها وما له قيمة هاهنا ليس له قيمة في مكان آخر ، كما أن ما له قيمة اليوم قد يفقدها في الغد ، وتغير هذه القيمة يتوقف لا على ظروف مستسرة غريبة ولكن على الأحوال الروحية المتغيرة لطائفة من الأفراد ، أحوال روحية يوجهها الفرد الأزكى حسبما يهوى . وليس ثمة حالة روحية أصدق من أخرى إنما هي أحسن منها فحسب أعنى أكثر فائدة وأكثر وفقا مع الضرورات القائمة. والرجل الذي يعرف كيف يعالج المعتقدات يتمثلها ويجعلها صادقة مثل الطبيب الذي يداوى أجسام مرضاه ويشفيها .

وصيغة هذه النزعة العملية أقل دقة عند جورجياس لأنه بدلا من أن يحلل بهذه الطريقة النفاذة الأحوال الروحية للذات وما تعنيه من تحولات نراه يقف طويلا كي يشيد بقوة الكلام أداة تلك التحولات . كان جورجياس أستاذاً للبيان فحسب كما كان يريد بروتاغوراس أن يكون معلماً للفضيلة أعنى المهارة في الشئون الخاصة والشئون المدنية لذلك جعل جورجياس من الوسيلة غاية . فقد نشد المثمة في القوة الإقناعية للكلام وفي الوسائل التي تؤيده وتبلغ به حد الكمال . ولم تكن تلك القوة الإقناعية ثمرة الدرس ولا ثمرة علم مكتسب متعلق بموضوع البحث ولم تنبشأ عن اقتناع يمكن نقله ولكنها وإلى حد ما ، هبة فطرية في الخطيب وهي إلى حد أكبر سر من أسرار الكلام . ولا ينبغي أن تستخدم المناهج القويمة إلا في استخراج هذا « السحر الذي في الكلمات » على أحسن الوجوه .

ولعل جورجياس لم ينكر في تعاليمه العادية وجود حقيقة ما . ولكنه

ذهب فقط إلى القول بأن معرفتها غير مفيدة ذلك أنه في كل موضوع « يكون نجاح من يحسن البيان في امتلاك أعنة القلوب مؤكداً عن نجاح رجل المهنة مهما يكن أمره » . ونحن نرى أن الموقف في جوهره عملي دائماً . فليس المطلوب هو المعرفة أو التعليم ولكنه العمل والدفع إلى العمل . فالمقل الإنساني لا تسببه الحقيقة ولا تسيطر عليه ولكن العقيدة هي التي تفعل ذلك والكلام المصوغ بفن هو سيد هذه العقيدة . وليس في وسع المرء أن يشيد بسحر الكلام كما فعل جورجياس دون أن يجد في الإقناع من شأن ما هو أقل تأثيراً بالمقل وما هو أشد تأثيراً بالاندفاع وال عاطفة . وها هو ذا جورجياس قد أعلن أن الخطيب لا يمكنه أن يتحكم في العقيدة والرأي كما يشاء دون أن يهز الشاعر . ومن بعده كتب ترازيماخوس مؤلفه « فن إثارة الشفقة » وتخصص في « البلاغة العاطفية » .

٥ — مذهب الشك

كانت معارضة العقيدة بالعلم نعمة قديمة في الفلسفة اليونانية . فأكسينوفان جد الفلاسفة الإليين قد أعلن منذ أمد بعيد أن كل علمنا عن العالم ليس سوى ظن . وبارمنيدس من بعده قد اعتبر العالم خداعاً خالصاً ؛ فتحول عنه باحثاً عن الكائن الثابت وعن الحقيقة « كما يعرفها الآلهة » . أما أكبر تلاميذه زينون فلم يحتفظ إلا بالجزء السلبى من مذهب أستاذه . ولقد حطم كل علم نظرى عن طريق نقده الهدام . ولدينا شخصية أخرى هي إنيادقليس من

اجريجاته وأستاذ جورجياس إذ كان رجل المفاركات حقاً . فهو على العكس من بارمينيدس قد سلم في صراحة بالحقيقة الإنسانية البسيطة وشرع في قص حدوث العالم وتطوره . ولكن هذا لم يمنعه من البحث فيما يتضمنه العالم من « حقيقة إلهية » التمسها في بوارق الإلهام عند الفرق الصوفية . فقد كان انبادقليس إذن فيلسوفاً طبيعياً على النحو القديم مبشراً بالنحلة الأورفية ، وخطيباً يهز مشاعر الجماهير ، وفناناً يشمر شعوراً صادقاً بمدى ما تحمله كلماته ومواقفه من احتيال فلماذا كله كان بمثابة حلقة اتصال بين العلم المهجور وبين الإيمان بالفعل الجبار .

وجد السفسطائيون إذن السبيل ممهداً . بعد أن زال كل اعتقاد في الحقائق الإنسانية أو الإلهية على السواء ؛ ولكن قوة الرأي العام أخذت تزداد شيئاً فشيئاً ، فكل مدينة مهما ضؤل شأنها كانت دولة ذات سيادة . وفي هذه الدولة وجدت طائفة على الحياد تتألف من الأنغال والعبيد وأقلية ممتازة ألا وهي : المواطنون . وكانت الحقوق السياسية وفقاً عليهم فكانوا يكوّنون في مجتمعهم « اكليزيا » كومة من الأفراد متساوين في حق التصويت وفي حرية العمل ، كما كانت لهم روح الجماعة : روح تهتز وتخضع لكل نسمات البلاغة . فلا ندهش إذن إذا كان السفسطائيون وتلاميذهم قد اعتادوا ألا ينظروا إلى أى موضوع إلا من الناحية الخطابية . واعتبروا معيار الحق والحقيقة ما للفكرة من قدرة على الإقناع أو نصيب من النجاح ، فكان طبيعياً جداً أن ينقلوا براعتهم في الدفاع وطريقة « الأخذ والرد » في تمريناتهم

المدرسية إلى أجل المشاكل خطراً وإلى مناقشة أشد المبادئ أهمية . وعلى هذا النحو حولوا الشك السائد في ذلك العصر إلى صيغ وحجج ، وساهموا في تحطيم كل ما كان يمكن أن يقف حائلاً دون أطماعه في القوة والسيطرة .

ليس للفعل الإنساني مصدر ولا مادة غير الإنسان : فعلام إذن هذا الاهتمام بكائنات خفية ليس في الوسع أن نشهد لها أثراً أو وجوداً ؟ . وعند هذا الحياد وعدم الاكتراث وقف بروتاغوراس يقول : « لا يمكنني أن أعرف ما إذا كان ثمة آلهة أو لا كما لا أستطيع أن أعرف صورهم . هذه مسألة قليلة الحظ من الواضح وما أقصر عمر الإنسان ! » وقد تواتر منذ عهد اكسينوفان في الواقع القول بأن الإنسان يخلق الآلهة على صورته . ولكن اكسينوفان لم يمترض على هذه الآلهة البشرية إلى حد كبير إلا لكي يؤكد على خير الوجوه السمو الإلهي . والمعتقد أن ترازيماخوس لم يكن يود أن تفلت من يده هذه الحجة ضد العناية الإلهية وأعنى بها حجة انتصار الأشرار . أما بروديكوس فقد فسّر أصل الآلهة بأن قال : « لقد أله الإنسان ما ينفعه : الشمس والنجوم التي تضيء له ؛ وديونيزوس وديمترئوس اللذان يقومان من أوده . »

ما عسى أن يكون أثر هذه المذاهب التي يتجاوبها كل مكان في الفتى أفلاطون ؟ لقد « ارتشف مع لبن الرضاع هذه المعتقدات المليئة بالسحر ، التي وصلت إليه عن طريق أحاديث الأمومة العذبة ، والمذبح الفخم ، والصلوات التي تعقب العبادة المنزلية كل يوم » . وإلى أن بلغ عامه الرابع والعشرين كان

يتحدث في شيء من الحماس عن دروس النسك العائلية هذه . وكانت له في طفولته تلك الروح الشاعرية التي ظل محتفظاً بها حتى يومه الأخير إلى جانب هذا النظر القلبي الذي يخلع الصورة على ما لا يرى . ولكن بأية لهجة مليئة بالرحمة الرفيعة سيمعظ في شيخوخته هؤلاء الشباب الذين كان يدفعهم كل شيء إلى الفسوق : نتيجة تهور الشباب واندفاعه وتآمر كل هؤلاء المعلمين الجهلاء في غير وعي ؛ من شعراء وخطباء وعرافين وكهان ، ثم علم الفلاسفة الكاذب ! أناشدكم الله أيها الشباب أن تنصتوا إلى : « لا زلتم أحداثاً وسيغير الزمن من شعوركم فانتظروا إلى ذلك الحين ، ثم أصدروا حكمكم بعد ذلك في هذه المسائل الخطيرة . ثقوا في شهادتي فلستم أول من تحدث بمثل هذه الأفكار عن الآلهة . ولقد وجد دائماً من تحدث بها وعرفت منهم كثيرين . أؤكد لكم أنه ما من أحد أنكر وجود الآلهة في شبابه قد استمر على هذا الرأي إلى أن بلغ الشيخوخة » .

لقد كان أفلاطون في شبابه كذلك متغطرساً تواقاً إلى الحياة ، واثقاً من نفسه ، مهمل التأثير كأى شاب آخر . فإذا كان من الممكن أن يزدرى أو على الأقل يتجاهل الآراء الدينية للأساتذة الذين لم ينصت إليهم إلا على سبيل حب الاستطلاع ومن أجل أن يتعلم منهم كيف يحسن التحدث فحسب ، فكيف يتأقن له إذن أن يتجاهل أفكار قريبه وصديقه اقرينياس ؟ لقد كان هذا شاعراً هو الآخر ، ولكن شعره من النوع الجاف الخالي من الروح الذي يصلح للتهمك أو لملء يصلح لتلك البسمة المقتنعة بالإنكار . وكل شيء يحمل

على الاعتقاد أن بطل درامته سيزيفوس كان مترجما عن فكره الصحيح حينما
 قص علينا كيف يتقدم الإنسان يخطى بطيئة من الحياة الحيوانية إلى أن يرتفع
 إلى أعلى الأفكار الخلقية والدينية . ولكن كلمة « أفكار » هنا غير مناسبة:
 فهي مخاوف ومخاوف موحى بها تُغذّي بمهارة فائقة . هي أ كذوبة حكيم قد
 خلق الآلهة شهداء منتقمين للجرائم الشديدة الخفاء . والجماعة بفرائزها ومعتقداتها
 وكل ما فيها من شيء مقدس كل هذا اصطلاح وتواضع وصناعة مقصودة .
 فإذا كانت مثل هذه المذاهب قد ظهرت دون أن يعوقها عائق ما ، فلهذا إذن
 لم تفسد الروح الجمعية ؟

البيئة السياسية

١ - السياسة الواقعية

إن القيد الذي تئن منه إرادة القوة أئيناً موحماً هو ذلك الشيء الهش العنيد الذي يسمونه : الحق . فإنه يعوق إرادة القوة في مناوراتها وفي التمتع بما تظفر به ، وهو لا يُسام ولا يموت ، ويحول بينها وبين أن تفرض نفسها . ولما كانت حريصة على تبرير عنفها فإنها تنعت احتجاجات المقهور بالنفاق : « لا يلعن الظلم إلا من لا يقوى على ارتكابه » .

وفي وسعنا أن نتساءل ما إذا كان ترازوماخوس الذي نسب إليه أفلاطون هذه العبارة قد قال حقاً في تعاليمه إن العدل منفعة الأقوى ؛ وإن بولوص تلميذ جورجياس قد أيد حقيقة الرأي القائل بأن الظلم التام والطغيان الظافر هو السعادة العليا . فمؤلفاتهم ليست بين أيدينا . ولكن لدينا التمرينات المدرسية نقلها طالب سفسطائي قدم في مؤلفه « الأقوال المزدوجة » . ففصله العُنون « في العدل والظلم » يشهد بأن هذه التعاليم قد ولدت الشك الذي قاد الشباب من الخطباء إلى أن يتناولوا بالتأييد أو بالإنكار جميع المسائل حتى مسائل الأخلاق الاجتماعية . وتوقيديدس شاهد من طراز آخر . فهو ينسب هذه الصيغ من السياسة الواقعية إلى ممثلي أثينا أنفسهم حينما كانوا يجادلون المييين

قائلين : « الناس كالألهة يبنغون السيطرة . فإذا تساوت الضرورة بين الطرفين انتظموا على العدل . وإذا اختلفت شطح الأقوياء إلى أقصى حدود قوتهم وليس على الضعفاء إلا الخضوع . هذه هي القاعدة الثابتة منذ الأزل ، أن يكون الأضعف خاضعاً للأقوى » .

ليست هذه الأشياء لدى المؤرخ ذكريات بالية من عهد المدرسة ؛ وإنما هي المبادئ التي سيطرت في تلك الآونة على سياسة جميع الولايات اليونانية وهي التي انقادت لها الأحزاب في كل ولاية . ففي الصراع الذي قام بين أثينا وأسبرطة منذ عام ٤٣١ وشمل جميع مقاطعات اليونان على وجه التقريب بالمعارك أو الدسائس ، لذلَّ لأسبرطة أن تنصب نفسها بطلّة الدفاع عن حرية المدن الصغيرة ضد الاحتلال الأثيني . ولكن مذهبها هذا في الحرية لم يصدر إلا عن حقدّها الأزرق ضد أثينا ولم يمنحها في سنة ٤١٢ من أن تؤدي مساعداتها المالية وحلفها مع ملك الفرس بمعاودة سلبت المدن الأيونية ما تمتعت به من استقلال خلال ٧٠ عاماً وأنكرت فيها ماضي بلاد اليونان المشترك .

وبالقدر الذي تسممت به الوطنية اليونانية من جراء هذه الحرب بين المدينتين تسممت كذلك الوطنية المحلية فسرعان ما أصبحت هذه الحرب لا حرباً بين سياستين فقط بل وحرباً بين الطبقات لا هواة فيها ولا لين . ولأول مرة في كوركيرا عام ٤٢٧ وهي نفس السنة التي ولد فيها أفلاطون ، أضافت الحرب الداخلية بين الأرستقراطيين والديموقراطيين إلى فظائع الحرب الخارجية وحشية تفوقها فظاعة . واغتصب الأرستقراط الحكم عنوة بتأييد كورنثوس

واسبرطة . فقامت معارك دامية في الشوارع ، وفي المنازل ، ونهبت المدينة وأحرقت . أما في البحر فإن الأسطول الاسبرطى والـكـورنثى كان يفر من الأسطول الأثينى وهكذا استعاد الديموقراطيون الثقة فظلوا سبعة أيام يحاكمون ويتهمون ويقتلون من بقى من أعدائهم ممن لم يقتلوا أنفسهم يأساً وغضباً . وسرعان ما عانت بلاد اليونان كلها هذا التمزق . وهكذا انقسمت كل مدينة على نفسها وأهاب رؤساء الأحزاب الشعبية بالأثينيين بينما أهاب الارستقراطيون باللاقوديمونيين . وتحت ستار إيجاد المساواة أو إعادة دستور الأجداد لم يفعل رؤساء هذه الأحزاب أو تلك أكثر من أن يتناوبوا السلطان فيما بينهم إرضاء لمطامعهم أو لترانهم . وأصبحت أثينا نفسها وهى حصن الديموقراطية بهذه الفسكة فرأت دستورها يتزعزع وحربتها تختنق في الدماء ثم تبعث بالدماء ، وفشلها أو نجاحها لم يعودا إلا تعلقة للثورات . وأخذ أعداؤها عن اعتقاد أو عن هوى يسلحون قواتها أو يهدمون قلاعها عن طريق مواطنيها أنفسهم . وهكذا عاش أفلاطون ، بين الخامسة عشرة والثلاثين من عمره ، في كل هذه الأحداث الرهيبة .

٢ - نكبة صقلية

وحكومة الأربعمائة

أبرمت في عام ٤٢١ معاهدة سلام بين أثينا واسبرطة عرفت بـ « سلام نيقياس » . ولكن الشكاوى المتبادلة من الطرفين وحركات المحالقات الدفاعية

بدأت منذ اليوم الثاني لإبرام المعاهدة . وأصبح هناك حزبان جديدان يواجه أحدهما الآخر : اسبرطة مع طيبة وكورنثوس ، وأثينا مع أوجوس وإيليس ومانتيانه . وكان أول انتصار دبلوماسي أحرزه القيبيداس هو نجاحه في عزل اسبرطة عن هاتين المدينتين الأخيرتين ، كما كان يحلم بانتصارات حربية يمكن أن تهيب له مركزاً مساوياً لذلك الذي كان لبريكليس الوصي عليه . فأيد بكل ما أوتي من قوة حملة صقلية حينما أتى سكان سيجنت شتاء عام ٤١٦ طالبين النجدة ضد سراقوزة . وكانت أغراض هذا المشروع مقبولة كما كانت فرصة للنجاح جميلة . ولكن عرقل الحملة أن كان القائمون على أمرها هم لاماخوس الجندي الممتاز المطيع إلى حد كبير لآراء زملائه ، ونيقياس كبير الارستقراطيين وعدو القيبيداس وكان كثير التردد في القيام بتلك الحملة وطالما رغب في منعها ، والقيبيداس الذي كان لتأثيره وعلمه الحربي ودسائسه ما مكّن المشروع من النجاح رغم الوقت الذي ذهب هباء في أول الأمر . ولكن مركزه سرعان ما تزعزع حينما نسبت إليه تهمة أرغم على ألا يجيب عليها فاستدعى في سبتمبر عام ٤١٥ للعودة إلى أثينا وهناك مثل أمام قضائه .

حدث في اللحظة التي كانوا يمدون الأسطول للرحيل في ليلة من ليالي مايو أن وجدت تماثيل هرمس وقد شوّهت وجوهها . تلك التماثيل التي كانت توضع أمام المعابد أو المنازل الخاصة والتي شرفها الأثينيون أكثر من غيرهم في عبادتهم . فلما زابل الشعب ذهوله نادى بأن هناك مؤامرة . فقدمت اتهامات عدة : استهدف لها أول الأمر القيبيداس فاتهم بأنه قد مثل الأسرار بطريقة ساخرة

في أحد الاجتماعات المرحية . ثم اتهم أيضاً عدد من الشباب الذين ينتسبون إلى أرقى الأسر . قيل إنهم وجدوا وهم يعبثون بتماثيل هرمس : وكان بينهم أقرتياس وأندوسيدس أحد أبناء عمومته . فثارت ثائرة القبيادس وطلب المحاكمة رغبة ملحة منه في أن يززع الانهام . ولكن أعداءه فضلوا الا انتظار حذر الشعب والجيش . وقد فضلوا هدمه دون اتهم أثناء غيابه . وأجلوا تقديمه للمحاكمة حتى يكون مركزه قد تضعف . رحل القبيادس إذن مع الحملة ولكن أقرتياس ظل سجيناً مع المتهمين الآخرين . وكان الموت سيكون نصيب الجزء الأكبر منهم لو لم يعلن أندوسيدس عن نفسه أنه على رأس المتآمرين فأنقذ به هذا الاعتراف أو بهذه الكذبة حياته وحرر الباقين . ولما اتضحت مسألة هرمس على هذا النحو تحول غضب الشعب نحو مدنس الأسرار . فأرسلت سفينة السلامية لإعادة القبيادس ولكنه كان قد اختفى خلسة أثناء الطريق ، وهرب في البلوينيز . وقد حكم عليه قضاة أثينا بالموت فكان رده السريع أن دفع الالاقوديمونيين إلى مساعدة سيرا قوسه مشيراً عليهم بتوجيه هجماتهم نحو البر ليحطموا قوة أثينا . وكانت نصائحهم فعالة إلى حد جعل الحملة ابتداء من سبتمبر ٤١٣ تتردى في نكبة هائلة فكان هذا بالنسبة لأثينا بمثابة الخطوة الأولى نحو الدمار .

جيشان يخضمان وينفذ في قائديهما حكم الإعدام . وسبع ملايين من المساجين يموتون من البؤس داخل المناجم . أما الذين امتد أجلهم فبيعوا عبيداً ، وفقد الجزء الأكبر من الأسطول . رفضت أثينا في ذهولها أن تصدق ذلك ولكن

اليونان بأسرها وأنه وسارعت تُعجل دمار الدولة التي ظلت حتى ذلك الحين غير قابلة للهزيمة . فشيدت إسبرطة أسطولا وتحركت الدول المحايدة لتأخذ نصيب الكلب من الغنيمة واثارت الممتلكات الأثينية . أما أثينا فتذهبت وقدرت الأمر من جميع النواحي وسرعان ما رأت أن مجلساً من خمسمائة مندوب كان بمثابة رؤوس عديدة لجسم واحد عليه أن يمد وينفذ على أكمل وجه أخطر القرارات . فعينوا من أجل هذا عشر مندوبين محضرين تمتعوا في الواقع بكل سلطة مجلس الخمسمائة . وتوالى بعد ذلك إصلاحات أخرى . ولكن الاسبرطيين احتلوا دقلية التي تبعد عن أثينا عشرات من الكيلومترات وعسكرت قواتهم على مرأى من أثينا نفسها وكانت تسيطر على السهل والجزء الأخصب من أتيكا . وحجز ذهب لاريون ، وتمهدت الفرس بأموالها الأسطول اللاتيديوني الذي عززته أثينا وعشرون سفينة صقلية . وآن الوقت لمشروعات الإصلاح الجديدة ولكنه آن كذلك للدسائس وللضربات العنيفة .

فهاهم جماعة من الأوليفارقين المعتدلين يقودهم ترامينيس وهو ابن أحد المندوبين الجدد قد ادعوا أنهم يرجعون إلى دستور خرافي لدارقون كان قبل سولون . وكان أنتيفون الرامنوسى وبرزندروس وفرينخوس مناصرين لأشد أنواع الأوليفارقية تطرفا . كل هؤلاء قد سارعوا في نفس الوقت ليحولوا دون رجوع الفبيادس وليستغلوا الهياج الذى تحدثه دسائسه ووعوده لأن أستاذ السياسة هذا ، أخذ يقوم في ذلك الحين بمناورات من شأنها أن تسلب اسبرطه المزايا التى أعطائها لها وأخذ يعمل بقوة لكي يحول إلى أثينا ذهب تيسافرن .

وأعدت جماعات الأوليفارقين السرية الضربات في الظلام ، فقتل الفتيان من حراسهم ، الديموقراطيين ، ولم تكن الجمعية لتصدر القرارات إلا تحت ضغطهم وشمل الإرهاق والانهام الشعب بأمره . ونُفذت المؤامرة بين مايو ويونيه فتقرر إنقاص عدد أعضاء المجلس العالي ، وأن تحفظ الحقوق السياسية للخمسة آلاف مواطن القادرين على التسلح على نفقتهم . أما من يكون هؤلاء الخمسة آلاف المميزون فهذا ما لم يذكروه بعد . ولكن اختير أربعمائة مستشار لانتخابهم ولتقسيمهم وليباشروا السلطة مؤقتاً . فاجتمع الأربعمائة متأبطين الخناجر ومحاطين بمائة وعشرين من حراسهم الفتيان . وذهبوا لإخلاء المجلس القديم الذي غادر المكان دون أن ينبس بكلمة . يقول المؤرخ - وهكذا « بعد أن تحررت أئتنا من الطفيان مائة سنة أكملت هذا المشروع الذي بدا عسير التحقيق ، ألا وهو أن تسلب الشعب حريته . هذا الشعب الذي ظل زمنا طويلا غير خاضع لإنسان فضلا عن أنه اعتاد أن يحكم الآخرين » .

ناهر أفلاطون السادسة عشرة من عمره في ذلك الحين . ولم يكن يتوقع بطبيعة الحال ، مثل جميع من كانت لهم ظروفه من الشباب ، عملا آخر يوم يصبح حر التصرف سوى أن يلقى بنفسه على الفور في أحضان السياسة . وإن كان هذا المستقبل قد بدا بعيداً فإن الشاب قد امتلأ شعوراً بأن هنالك مصيره وواجبه ، فلم يتوقف لذلك عن متابعة الحوادث في اشتياق مشوب بعاطفة . هو شوق يميل إلى جانب الوضع الجديد للأشياء ، لأن قريبه أقرتياس ، مما لاشك فيه ، كان أحد أفراد الأربعمائة ، ولم يكن لأقرتياس في الحكومة النفوذ الذي

كان يصبو إليه لأنه كان يمثل حزب القيادس الذى نظر إليه الأوليفاريون المتطرفون نظرة ارتياب - ولعله قد فضل هذا النوع من الاختفاء الذى شعر بأنه مؤقت . لأن القيادس لما لم ينل نصيبه من تلك الثورة التى قامت من أجله والتى استمرت دون أن يشترك فيها ، كان قد تحول نحو أمانى جديدة ، ونحو دسائس جديدة .

ولعله لم يبق أمام الفريق المنتصر من عمل آخر يستحق الإنجاز بعد أن ارتوى من انتقاماته المهمة . وبعد أن أزال الحجب التى تحجب عنه غايته إلا أن يعقد السلام بأى ثمن مع لاقيديونيا . ولكن هذا الفريق بدأ يلاحظ منذ لحظة وجيزة أن الأسطول الأثينى وجيش ساموس وعلى رأسهما ترازبولوس وترازيلوس أقسما أن يعيدا الحكم الديموقراطى وأن يستمرّا فى الحرب حتى النصر . وأن ينظرا إلى حكومة الأربعمئة كسلطة معادية . وبمساعدة ترازبولوس استعاد القيادس بسحر وعوده ثقة جيش ساموس الذى انتخبه بدوره قائداً واثقاً من أنه سيحصل بفضل على ذهب تيسافرن وأنه سيعود معه إلى أثينا منتصراً .

وحينئذ كشف المعتدلون عن دسائس المتطرفين الذين سموا سعيًا حثيثاً فى الاتفاق مع اسبرطة وحصنوا أرصفة بيرية تجنباً لغضب أثينا وغضب ساموس مما وهكذا أمكنهم أن يلاقوا العدو كما يشاءون فى ألبيرا وفى البحر فصاح ترامينوس بأن هناك خيانة وأنخذ الشعار الذى نادى به القيادس وهو : إيقاف حكم الأربعمئة وإعادة حكومة الخمسة آلاف إعادة فعلية . أما فرنيخوس فقد

اغتيال وفر قاتله . فلما هزم الأثينيون على أبواب أرتريا وخسروا يوبية التي كانوا يستمدون منها المؤن صمموا على إسقاط حكومة الأربعمائة وعلى إعادة السلطة إلى الخمسة آلاف وطالبوا بإعادة المنفيين . فحكم على أنتيفوس والتجأ بيزاندر والمتطرفون الآخرون إلى دقلية وأعد أقرتياس الذي كان مختلفاً مع ترامينوس بالاتفاق معه التصويت الذي نادى بالقياداس ودعاه لتولى مهام الأمور .

وبفضل اتحاد متزن بين الديموقراطية والأولفارقية تنفست أثينا الصعداء وبدأت حياة الاستقرار . وفي ذلك يقول قيوسيديد : « لم يحكم الأثينيون حكماً أصح مما كان في هذه الآونة الأولى » ولا يختلف حكم أرسطو عن ذلك . وحينما قاد القيبياداس الأسطول ربح ترامينوس وترازيبولس عام ٤١٠ معركة سيزيوقوس وأعادوا غزو ساحل البحر الأسود وأعيد مجلس الخمسمائة واستقرت الديموقراطية التامة التي استمدت وحيها من قليفون فرفضت مهادنة أسبرطة وصممت على الاستمرار في الحرب حتى النهاية . وفي عام ٤٠٨ أعيد غزو البوسفور . وفي ربيع عام ٤٠٧ عاد القيبياداس إلى أثينا ، وقلد نفسه شرف حراسة الموكب السنوي لأثينا الذي كان يسير من أثينا إلى إيليسيس .

هذا الإصلاح في الدولة الأثينية بدأ يلقى بالدارا فأرسل ابنه الأصغر قيرس إلى سارديس ليحل محل ترافرن وعين الإسبرطيون من ناحيتهم أميراً جديداً للبحر هو ليندريس . وفي أثناء غيبة القيبياداس وبالرغم من دفاعه الشكلى اشتبك قائمقامه أنتيخوس في معركة مع أسطول ليندريس في نيتيوم .

ولما خسرها هرب تاركاً وراءه خمس عشرة باخرة طمعاً للماء . وبذلك فقد القبيادس هيئته وعزله الشعب فاحتفى في أحد قصوره المحصنة في خرسوتيزا . وجر سقوطه سقوط أقرتياس كذلك . فتذكر قليونون مشاركة هذا في حكومة الأربعمئة واتهمه بابتغائه للطغيان واتخذ من مريثة سولون القديمة حجة تؤيد القول بأن هذا المطمح ورائى في عائلة أقرتياس ودروبيدس . فكان أن فر أقرتياس إلى تساليه حيث وجد مادة غير منتظرة لحبه في القتال فحاول مع من يدع بروميتيوس أن يثير حركة ديموقراطية بتسليحه العبيد ضد السادة . وفي تلك السنة (٤٠٧) التي رحل فيها أقرتياس إلى منفاه تعلق أفلاطون بعصا حبة سقراط وكانت سنه عشرين عاماً .

٣ — محاورات سقراط

لقد عرفه منذ أمد بعيد . ومن من بين الجمهور الشاب الذى كان يتردد على المراضات والملاعب ومن من بين جمهور الأثنيين على اختلاف أعمارهم لم يألف منظر فيلسوف الشارع هذا . . مضت حياته بأكملها في الخلاء «فكان يذهب مبكراً إلى أماكن النزهة والملاعب . وكان يرى في الأسواق في الأوقات التي يشتد فيها الازدحام . وفي المساء ما كان يلتئم جمع إلا ويحضره باحثاً عن علة المناقشة ».

لقد صحبه أقرتياس وخرميدس منذ زمن بعيد وظلا محافظين على العهد

حتى عام ٤١٥ على وجه التقريب . وحينذاك جذب اقريطاس في عنف أثر سياسة القبيادس ثم جذب معه خرמידس المتواضع شيئاً فشيئاً . وكم من مرة سمع أفلاطون الطفل محاورات سقراط يرويانهما فيما بينهما . تلك المحاورات التي كانت تفيض بالكر والطيبة والسخرية اللطيفة ، ولكنها كانت تفيض أيضاً بالسمو والنبيل ! ها هو ذا سقراط بين إعجاب مستمعيه الشديد يكشف عن عجز أحد السفسطائيين في البلاغة . وها هو ذا مرة أخرى يسخر من تناقض المواطنين الاثنين أولئك الشجمان الذين يكثران التدقيق حتى يختارون حداً أو نجاراً لأعمالهم الخاصة في حين أنهم يستسلمون للبخت وللقرعة في اختيار حكاهم ! إن تهكمهم قد أصبح لاذعاً قاسياً حين يلعب به ظهور أولئك السياسيين الجهلاء المدعين الذين يمتقدون أنهم أخيراً مجرد تمسكهم من الكلام ومعرفتهم شيء من البيان ، ولأن أطاعهم لأحد لها . تبع التهم صوت الرصين وتبع المناقشة العميقة الأسئلة البسيطة واتخذت أحاديث اقريطاس وخرמידس اللذين كانا يفسران فيما بينهما المشاكل التي وضعها سقراط ، صبغة جدية ، سرية . هذه الأسرار نفسها ، وكذلك روح الشجاعة والإخلاص التي لا توجد إلا لدى الفرسان والتي جرى ذكرها على ألسنة من شاهدوا سقراط في ميادين القتال ثم تلك الهالة من الشعر التي تنثر من تلقاء نفسها على كل ما يحرك حرارة قلب غلام صغير ، تضافر كل هذا على أن يخلق في مخيلة أفلاطون شعوراً سابقاً وتوقفاً لرجل يختلف كثيراً عن الباقيين ويفضلهم كثيراً في نفس الآن .

ومع ذلك فإنه لم يسع إلى رفيقه إلا متأخراً . لقد دار من قبل على

السفسطائيين كهاور . يلتقط من هذا وذاك فكرة متضاربة ونموذج جملة برافة ،
أو استدلال بارع ، أو إشارة ، أو موقف ، أو تصنع للعظمة وللبراعة تلك
الاشياء التي اشترك مع رفاقه في السخرية منها أولاً بأول أو التهمك عليها
في قرارة نفسه . وما من شك في أنه أخذ بنصيبه من تسلية ومتعة من في مثل
سنه : فانتقل إلى المسارح حين شب وترعرع بمد أن كان يتملى بالنظر إلى
المشعوذين وإلى خيال الظل . وفي حوالى الثالثة عشرة حضر تمثيل رواية
المصافير لأرستوفان ، وبعد ذلك بثلاث سنوات في الوقت الذي اشتدت فيه
نسكة صقلية على أثينا سمع ليزستراته تنهر هؤلاء اليونانيين الذين يهدرون
دمائهم على مذابحهم والذين يتقاتلون فيخربون مدنهم اليونانية الجميلة بينما كان
الأجانب متأهبين بأسلحتهم . وفي هذه السنوات الأخيرة نشر سوفكليس
روايته فيلوكتيديوس ونشر أرستوفان يولوتوس الأولى ونشر يورويديس أورستا
ثم أتباع باخوس حيث أطرى الوجد الصوفى . ولقد حاول أفلاطون نفسه أن
يقرض الشعر وتمنى بكل جوارحه لو حذا حذو يورويديس . ولكن ملاذاً
أخرى وواجبات أخرى شغلته عن تلك الغاية فكانت أمامه الرياضة التي تحتل
مركزاً مهماً في حياة كل فتى نبيل ثم شغلته التمرينات العسكرية ومشاركته
في الدود عن حياض الوطن حينما أقسم في سن الثامنة عشر عين الجندية .

وكان يشعر من آن لآخر بحاجة إلى الاشتراك في معامع الفلسفة .
فاختارت له أسرته أستاذاً هو اقراطايوس الأثينى . وهو تلميذ هرقليطس الذى
سار بمذهب حكيم افسوس (هرقليطس) إلى أبعد ما يمكن أن يصل إليه .

فكان لا يكتفى بأن يردد تلك الكلمة المشهورة : « كل شيء في سيلان دائم ولا شيء يثبت على حاله ، ولا يمكن أن ينزل إنسان في نفس النهر مرتين . » بل كان يقول : « لا يمكن أن ينزل الإنسان إلى النهر ولا مرة واحدة ، لأن شيئاً ما لا يبقى على ما هو عليه فحسب بل مادام كل شيء يتلاشى بمجرد ظهوره فإن شيئاً ما لا يبقى مدة كافية لأن تدركه أو لأن تعرفه عقولنا . ولا يمكننا من هذه البرهات التي تتابع أن تثبت شيئاً أو أن نقول شيئاً . ولا يمكننا إلا أن نؤمن مشيرين برفع الإصبع ! » وقد تركت جولة فلسفته الحية وبراعتها النفاذة أثراً راسخاً في نفس أفلاطون . ووجد الشاب فيها أقوى صورة من صور هذا الشك العقلي ، الذي تضافر على بثه فيه دروس السفسطائيين ومحادثات اقريطاس بل والهواء الذي كان يستنشقه في ذلك الوقت .

ولكن ما كان للقلب أن يشك في سن العشرين . فإن بقية من الحرارة فيه لكافية بأن تجعله يجيب عن شكوك الروح أو عن نكراتها بتأكيدات من عنده هي تعبير عن رغبته في الحياة وعن إيمانه في وجوده وفي قوته . رغب أفلاطون في الاندماج في الحياة بكل ما أوتي شبابه من حمية . فلاحظ أن زمن المدرسة قد انقضى ؛ واستشعر من نفسه نضوجاً يهيؤه لتكوين أكثر تعقيداً فجاء يطلب من سقراط ، كما فعل القبيادس واقريطاس وخرميدس نفسه ، أن يمد له للسياسة . وكان نفى اقريطاس الذي حرمه من رائده المعتاد سبباً آخر يجعله يبتنى في سقراط اليوم أميناً على رغباته ، وموجهاً لدفة طموحه ، وهو طموح كان يحس بأنه عظيم ونبيل متناسب مع أسرته ومع نفسه ومع هذا

الأستاذ الذى طالما رغب فيه .

كان سقراط قد بلغ فى تلك الآونة ما يقرب من ثلاث وستين عامًا وكان يعرف عنه - كما ذكر ذلك عن نفسه دون خجل - أنه كان ابنًا للنحات صوفرونكس وللسيدة الحليمة فيناريقا . وكان آثيني الجنس مواطنًا قد سجل اسمه فى ثبت أحد الولايات . خدم كجندى محارب فكان مبرزًا فى مناسبات عدة ولكنه لم يتخط حدود أثينا مطلقًا لسبب آخر خلاف الحرب . هذا ما كان يميزه بوضوح عن أولئك السفسطائيين الأجانب الذين اشترك وإياهم فى حياة متشابهة الظاهر . ووجه آخر من أوجه طرافته أنه لم يشغل بمال وقد كان يحضر لسماعه من يريد فما كان يتناول أجرًا على محاوراته بل كان يقول بصراحة أن قبول الأجر نوع من العبودية . وتجارة الحكمة هى تجارة الحب فبالقيام بها تعلق سقراط بالعقول والقلوب . ولما كان قد أخلص بطريقة أدبية كانت تخفى فى الكثير الغالب مخازى كان يتسامح فيها العالم القديم إلى حد كبير كان له أن يتخذ مظهر من « يتابع الجمال » ولكن هذا التعبير كان تعبيرًا مجازيًا شائعًا وعلى ذلك ظلت شهرته كما ظلت حياته نقيتين على الدوام .

وأى علم وأى تعاليم تلك التى يمكن أن يبيها ؟ إنه يتظاهر بأنه لا يعلم شيئًا ولا يعلم شيئًا ، ولم تكن له فى الواقع طريقة الأستاذ أو المحاضر . لقد كان رجل سؤال دائمًا . ففضوله لم يبق على شخص ولم يتراجع أمام أى شىء . كان يستجوب السفسطائي فى صميم ثقافته ، والصانع فى صميم حرفته حتى وصل به الاستجواب إلى الماهر تيودركته وهى جالسة أمام مرآتها تهيب

سحرها . كان يستوقف الشاب في الطريق أو يستجوبه في الملعب وسط رفاقه . وطالما تملل برغبته في التثقف فسلط على خطيب بعيد الصيت أو سيامي مشهور استجواباً منظماً . هو لا يعرف أكثر من وضع السؤال وتقبل الجواب فيقلبه على كل وجه حتى يظهر فساد . فيسأل سؤالاً آخر ويميد الكرة ويظل كذلك حتى يعترف المبتلى بأسئلته ويسلم معه بأنه لا يعرف شيئاً ، أو قد يرغب على إظهار جهله بالأشياء التي كان يعترف بمعرفتها فيلحق بنفسه في مهارات لا طائل تحتمها أو يذهب عنه مضطرباً . والحال أن سقراط كان منهلاً شديد الزحام ، فلم يجد شباب الأمر الغنية الذين اتسع وقت فراغهم منظرأ أعذب من منظر أولئك الرجال المبجلين الواثقين بأنفسهم وقد طامنوا من كبريائهم أمام هذا القاضي التشح بثوب التلميز . وكانوا فيما بينهم يتنافسون في تطبيق هذا المنهج الرائع على أكبر عدد ممكن من الضحايا . ولم يموز هؤلاء الشبان أن يجدوا بدورهم علماء باطلا يكشفون عما فيه ، ولا مفروراً يتبرون حفيظته .

كثيرون هم هؤلاء الذين لم يروا في سقراط أفضل من هذا فترددوا عليه باعتباره الجندي المحنك والمتحدث بسديد الرأي في المسائل القضائية والسياسية ، وهل كان للتفنيد السقراطي في رأى ثلة الشبان الطموحين المتهافتين على اللعب معنى آخر أنفع من هذا المعنى ؟ شعر أحسنهم حظاً في المواهب أمثال القبيادس واقريتياس أحياناً بوخز تفنيده في أعماق أعماقهم . وكشف الغطاء عن عجبهم وانضح فراغ حياتهم فولولوا من الإفحام والغضب . ولكن إرادة القوة العمياء أكدت في قلوبهم وناداهم أتباعهم وقد نفذ صبرهم وسلم العالم لهم نفسه ،

فأرخوا جفونهم دون سقراط الحقيقي خوفاً من أن يفهموه أكثر مما يجب واتخذوا منه في آخر الأمر سفسطائياً أكثر جاذبية وأقدر على تكوين النفوس. ويمكننا أن نتخيل أفلاطون وهو يسمى إلى سقراط تصاحبه ثقة مشوبة بإعجابه الطويل الساذج . ومع ذلك فقد اضطرب منذ أول محادثة لما كان فيها من قلة تلاف . ويحتمل أنه قد عرف أن سقراط لم يعالج فروضاً أو نظريات تتصل بالطبيعة والسماء والآثار العلوية ، وأنه اهتم فقط بالإنسان وبسلوك الإنسان في المدينة التي يحيا فيها . ولعله قد وعى من روايات أعمامه وكذلك من النقد المر الذي أتاه من كل مكان ، إن سقراط لم يقصد ربط هذا السلوك بالتقاليد العائلية أو بالأمور المعمول بها أو بآراء وأصوات الأغلبية . نحال إذن أستاذه العجوز ، وهو بعيد عن أن يوجد أية عقبة في سبيل تحقيق أحلامه في المشاركة السياسية ، أقول خال أستاذه سياج معه السياسة بنفسه ويبدأ منذ اللحظة الأولى بأن يمهّد له الطريق إلى دراسة الرجال وإلى تعدد الطبائع وخير الوسائل في تتبعها أو في مخالفتها وأن يرشده أخيراً إلى كيفية إدارة الحديث إن في الهجوم أو في الدفاع .

وإن تكن ثمة غاية أخرى في نظر الذين كانوا يمدون له مستقبه وفي نظره هو ، من التعاليم التي لقنها ومن التعاليم التي تركت له حرية اختيارها سوى شحذ ذهنه وطلاوة لفظه في هذا الضرب من السياسة العملية . قد يكون نقد اقراطيبوس العنيف الذي يشتت النفس قد حد بصورة ضعيفة ومتواضعة من مرونة إرادته . ولكن فيما عدا هذا نرى أن جميع أساتذته ورائديه لم ينكروا

في حضرة العلم أو الحقيقة إلا ليوقفوه على القيمة الفريدة للفعل الذي خلق جماله بنفسه وخلق حقه بنفسه . وها هي ذى تتدفق من وراء أسئلة سقراط المخرجة الواحدة تلو الأخرى أحوال غير منتظرة وحدود وقواعد وقيم تحكم الفعل نفسه وتهبه ماله من قيمة وقد بدا هذا المعيار الأسى العام بسيطاً معقولاً وهو في نفس الوقت موضوع لعلم سام ليس بمستعظم على الحياة بأجمعها أن تبحث عنه وأن تحصل عليه . أخذ شباب أفلاطون الفياض وتقاليده العائلية وتمثله في الأسرة وتكوينه الخارجي أخذ هذا جميعاً يناديه : « العمل ، العمل » . ولكن سقراط وسقراط الساخر الذي لا يعرف شيئاً والذي أرغم الآخرين على الاعتراف بجهلهم والذي تظاهر بأن ليس لديه ما يلقنه إياهم لم يلقن أفلاطون غير قاعدة لم تتغير على الدوام هي « المعرفة أولاً » .

طلب أفلاطون من سقراط أن يمهده طريق الصراع اللفظي وأن يعلمه كيف يسيطر على الرغبات المتنوعة . وسأله فصل الخطاب في فن إقناع البشر وقيادتهم . ولكن فيم أراد إقناعهم ؟ ألكي ينادوا به واليأ فيملن الحرب متى شاء فينال المجد ؟ ولكن فيم ينفع النصر إن جهل الإنسان الانتفاع به أو لم يكن خبيراً بكيفية استغلاله في مصلحته الشخصية ؟ سمى إذن إلى السلطة السياسية وعمل على أن يطمئن إلى تحرره قدر المستطاع من الملابسات والقيود . ولكن فيم تنفع القدرة المطلقة وفيم ينفع الطغيان نفسه ؟ . أفى إعداد الحياة والمنافع للمواطنين وفي سوق المدنية جوراً إلى الطريق الذي يقع الاختيار عليه ؟ ولأية فائدة إن لم يعرف الإنسان نفسه ، الام يؤد هذا الطريق في النهاية ؟ . .

أرضى أفلاطون أن يفضى به الطريق إلى إرضاء رغبته في القوة وإلى أن يهبه لذة الشعور بأنه يفعل ويدفع إلى فعل ما يلد له فحسب؟ ولكن هل ما يستطيعه ، سيكون هو على الدوام ما يريد؟ أليس ما يريده هو العمل لمنفعته أعني خيره الخاص؟ أيرجو من هذا الطريق تنظيم المواطنين في انسجام ووحدة؟ وأي نفع سيعود عليهم من هذا الانسجام ومن تلك الوحدة؟ أليجمعوا رأيهم على قيادة الحرب أو السلام؟ وماذا يحدث لو لم يقع هذا في الوقت المناسب وكما يجب أعني إن لم يتشاورا في ترو؟ أليست الحكمة هي المنفعة؟ وهل يرتجى نفع مما لم يؤيد بالقسطاس؟ أليس من المتواضع عليه أن المنفعة والعدل والخير شيء واحد بالذات؟ وهل وقع عليه أفلاطون بعد؟ أيعرف في كل الأحوال ما هو خيره الخاص وما هو خير المدينة وما هو خير كل إنسان وخير كل مدينة؟ فإذا لم يكن له هذا العلم بعد .. أيعرف ماذا يجب أن يفعل ليحصل عليه ، ألا يمتدح أن ليس ثمة شيء أعسر من البحث عنه ومن الحصول عليه ؟ ..

٤ — ثورات أثينا

ومحاكمة سقراط

تلك كانت الأفكار التي ألفتها في نفس أفلاطون يوماً بعد يوم محادثات سقراط واستفهاماته . ولكن أفلاطون الذي أخذته الدهشة في أول الأمر أخذ يتبع الآن في شغف طرائق التنفيذ السقراطى الحرة المأمونة غالباً التي كان

ضحاياها هم من جهلوا أو لم يرضوا الاستفادة منها . وقد اكتشف في نفس الوقت وراء بساطة سقراط الظاهرة علوآ في الروح ونبلا في الإرادة طاماتاقت إليهما أحلام طفولته . ولم تكن السذاجة والابتسام والتهكم المستمر نحو نفسه ونحو الآخرين ، عند هذا المعجوز غير زهرة نفس نأت بذاتها عن نفسها وعن كل ما لا يتصل بالحقيقة التي تنسدها . كان وافر الاستقلال إذ عزف عن المال والجاه ولم يفرض فكره على أحد مطلقاً بل ولم يفعل ذلك بالنسبة لأشد طلبته قرباً منه ، فخلصت من كل كيانه شخصية قوية لما بدا فيه من بديهة مستعدة للتبصر على الدوام وإرادة غير قابلة للانحراف . كانت لأفلاطون عواطف أخرى قام عليها قلب بلغ من إخلاصه أن بدى له الناس والتقدير على درجة عظيمة من الجور . ولكن السنوات التوالى قاده دون شك إلى أن يحكم من أعماقه ، في قسوة ، على أوهامه التي كان يمتاز بها ، وأن يقارنها إن في الحياة وإن في الموت بتلك العظمة الواضحة الصافية التي جبل عليها أستاذه الحقيقي وأستاذه الأخير .

غرم الأثينيون ثلاثين باخرة تجاه ميثينا وظلت الأربعون الباقية محاصرة في الميناء ، وفي هذه المرة أيضاً شحذوا عزيمتهم وجمعوا في شهر واحد أسطولا مكوناً من مائة وأربعين قطعة واشتبكوا في معركة مع أسطول اسبرطة عند أرجنوس جنوبي لشبوس وأغرقت في هذه المعركة سبعون سفينة من سفن العدو وقتل قائد الأسطول . فكان نصرأ جميلاً ولكنه انقلب غمأ وكآبة من جراء نكبة ربما لم يكن من الممكن تجنبها إذ أفسدت النصر جريمة خرقاء

تَردت من أثرها خمس وعشرون سفينة أثينية في اليم ؛ فقد حاول القواد الأثينيون أن يستفيدوا من ريح شمالية شديدة في الهجوم على العدو فتركوا حيث كانوا ترامينوس و ترازبولوس وكان معهم سبعة وأربعون سفينة للجمع الفرق ولكن العاصفة اشتدت وتمذرت معها أية محاولة للخلاص . واتهمت أثينا جميع القواد عدا كاتون وامل الخوف من العقاب أو الرغبة في الإفادة من غضب الهيئات هو الذي حدا بتيرامينوس إلى أن يتهم القواد أمام المجلس . وسار كاليبكسنوس على منواله فقرر مع المجلس محاكمة المتهمين ككتلة واحدة دون أن يسمحوا لهم بيوم واحد للدفاع عن أنفسهم . واحتج في أول الأمر الشيوخ الذين فموا بدور المستشارين ولكنهم تراجعوا أمام عاصفة التهديد التي أقامها كاليبكسنوس متوعداً إشرافهم في الاتهام . وكان سقراط هو الوحيد الذي جسر على القول « بأنه لن يتخلى عن القانون » ولكن القواد الثمانية قدموا للمحاكمة وقتل ستة على الأقل . وكان أن ندمت أثينا على فعلتها ولكن بعد فوات الأوان ثم رغبت في معاقبة من قاموا باتهام القواد ، فقضى على كاليبكسنوس بالموت جوعاً تصحبه اللعنة من جميع الجهات .

غنمت معركة أرجيوس ممن حل محل ليزاندرس واستدعت إسبرطة هذا لقيادة أسطوله قيادة فعلية بعد أن أعيد تنظيمه . ولم يكد صيف عام ٤٠٥ ينقضى حتى كانت في حوزته مائة وستون سفينة أثينية وكان مجموعها مائة وثمانون مما أثار دهشة إيجسباتاموس الشديدة : وقضى على جميع الأسرى بالموت وكانوا حوالي ثلاثة أو أربعة آلاف أسير . وأنت سفينة بارالين بخبر النكبة

وخبر بيريه مع الليل فسرت الدهشة والأين حتى بلغا أثينا « فلم يغمض لمخلوق جفن في تلك الليلة ، وأخذ الأثينيون يندبون موتاهم بل قل يندبون أنفسهم إن شئت الدقة » ثم تخلت عنهم اليونان بأسرها خلا ساموس . ووفق ليزاندريس في الاقتراب تصحبه مائتان من السفن كما عسكر الملك يوزانياس في ملعب الأكاديمية . وهكذا حوَصر الأثينيون برأ وبحراً ، فاضطروا إلى طلب الهدنة تحت إلحاح الجوع . فلم يكن في مقدورهم أن يحطموا الجدران . أمهل تيرامينوس الموقد إلى ليزاندريس هذا الأخير أكثر من ثلاثة أشهر لينتظر ، كما يقول أكسينوفون ، اللحظة التي يكون فيها الأثينيون مهينين للاذعان التام تحت إلحاح الحاجة القصوى ، سيما وأن قليوفون رجل المقاومة قد اغتيل . وطلب منهم بعد قبول هدم تحصينات ميناء بيريه والجدران الشاهقة التي كانت تحيط بها تسليم جميع القطع الحربية عدا اثنتي عشرة منها . « ودخل ليزاندريس بيريه تاركا السفن خارج أسوارها وأعيد المنفيون وهدمت الجدر بين أنغام الناي وساد السرور لأن ذلك اليوم كان إيذاناً ببداية الحرية لليونان بأسرها » كما كان يؤذن باسترقاق أثينا التي أقسمت « ألا يكون لها أصدقاء ولا أعداء غير الأسبرطيون » وأشرقت عليها شمس اليوم التالي يرافقها الطغيان الداخلي .

« تواضع الشعب على انتخاب ثلاثين مواطناً لتشريع نظم جديدة » حدث هذا تحت إشراف ليزاندريس وهو ما كان ينتظره ليفصل عن بيريه . وكان تيرامينوس طبعاً من بين هؤلاء الثلاثين أما أقريتياس فقد عاد مع المنفيين الآخر . وفي فترة انتظار صدور التشريع الجديد انتخب هؤلاء الثلاثين من

تلقاه أنفسهم أعضاء المجلس الخمسة كما انتخبوا الولاة الآخرين واختاروا أحد عشر فردا ليزج بهم في السجن كما عينوا عشرة مديريين لبيريه واتخذوا لأنفسهم حرسا من ثلاث مائة نفر يحملون السياف وهكذا تألفت حكومة قوية . كان أفلاطون يتمنى دون شك هذا التعويض لأقريتياس ولم يكن يخلو من زهو بوجود خاله بين مديري بيرييه . وأغلب الظن أن دورة قد جاء إذ دعاه خاله ونفر من ذوى السلطان من أصدقائه لأن يأخذ مكانه في تلك الحكومة التي تستجيب لأفكاره . ولكن أفلاطون لم يكن ليتابع أحاديث سقراط أو ليتقبل أسئلته أو ليفتح عينيه على الحياة عبثا . لقد ذكر ذلك بنفسه في خطابه إلى أصدقاء ديونيس . كان يقدر جيدا أن السلطة الجديدة ستعيد المدينة إلى « طرق العدالة » ولكن مطالب نفسه كانت قد سمّت إلى حد تولد معه شك خفى يمازج آماله . فرغب في الانتظار والترقب .

بدأ الثلاثون بأن أمنوا الجميع وأرضوهم بقضائهم على الوشاة الخطرين ثم كفوا أنفسهم شر التحولات التي يمكن أن تقع بأن طلبوا الحماية من أيزاندرس وحينذاك أفصحوا عن رغبتهم في « تطهير المدينة » ولم يسمح ترامينوس بأكثر من التطهير ولم يعاقب إلا الديمقراطيين المبرزين . أما أقريتياس فقد عاد من منفاه طاويا حنايا صدره على ضغن . فكان يعتبر كل من طالب بل كل من تمنى الدستور المنشود عدوا له . وأخيرا ، فإن الحماية الاسبرطية تعذب عدوا . لذلك حارب أقريتياس من وقع عليهم الاختيار من الأغنياء . واحتج ترامينوس على هذا السلوك وحاك له الدسائس ثم طلب منه أن يعلن

أسماء من تكون لهم حقوق المواطنين فحدد أفريتياس عدد هؤلاء بثلاثة آلاف - ولكنه امتنع عن نشر الأسماء . وطفق ترامينوس يحتج ويلج في الاحتجاج ولكن أفريتياس وفق إلى إصدار قانون يجعل للثلاثين سلطة إعدام كل من لا يوجد اسمه بين ثبت الثلاثة آلاف دون محاكمة واستصدر بعد ذلك قانونا آخرًا يجرّد كل من سمى ضد حكومة الأربعمئة من حقوقه السياسية . فأمكنه بذلك أن يتهم ترامينوس هذا الخذاء البالي ، على حد تعبيره ، الذي ارتدى جميع الأحزاب وخانها . وأخيرا تجرّع ترامينوس كأس السم « في صحة أفريتياس الحاذق » .

نشر أفريتياس بعد ذلك ثبتاً بأسماء الثلاثة آلاف وجرّد باقى السكان أثر ذلك من الأسلحة واستمرت حوادث القتل ونزع الملكيات . وكان عدد من قتلوا في عدة شهور ينوف على الخمسمئة ونفى عدد آخر لا حصر له : فكان ذلك بمثابة حماقة خرقاء . تجمع المنفيون في كورنثوس وميغاريا وطيبة والتأموا تحت إمرة ترازيبولوس فاحتلوا فيلية ثم بيرية - وطالت الحرب بين الفريقين وزادت تقيدا وكان طبيعيا أن تتلاعب اسبرطة بالفريقين واستخدمت ليزاندرس وبوزنياس لتحقيق أغراضها وكان مصير كل من أفريتياس وخرميدس القتل في معركة مونيخيه في مايو عام ٤٠٣ - ولكن السلام لم يعقد إلا في سبتمبر من نفس السنة حينما تدخل بوزنياس في الأمر . فأعيدت الديموقراطية وساد الجميع عفو شامل إلا من اشترك في حكومة الثلاثين .

لم يعد لأفلاطون صديق غير سقراط . وقد حدث في الفترة التي شن فيها

الثلاثون الحرب على أغنياء الأنغال أن أمر سقراط ، رغبة في تعريض أكبر عدد ممكن من الرجال للخطر ، بالذهاب مع أربعة آخرين للقبض على ليون من سلامينا بغية إعدامه - ولكن سقراط لم يذعن للأمر ولم ينجح من انتقام الثلاثين إلا زوال دوائهم بعد ذلك بقليل . وقد استمر خلال هذا الحكم وفي ظل الأحكام الأخرى كلها محتفظا بصراحته وظل على تلك الحال حتى بعد أن منعه أقرتياس من تعليم البيان وكان يرمى من وراء ذلك إلى إسكاته . هذا ولم تكن لدى أفلاطون أسباب يزور من أجلها من الحكومة الجديدة تلك الحكومة التي شملت الأدب بعفوها والتي راعت الاعتدال في باقي المسائل . ومهما يكن من أمر انصرافه قليلا قليلا عن المشاركة في الحكومة مشاركة فعلية فإن اهتمامه كان لم يزل شديداً وكان قد أعد نفسه لمتابعة العمل في السلام المشروع حينما حدث ، ولم يكن في الحسبان ، أن اتهم سقراط بالإلحاد أمام محكمة هلياست .

قام باتهام سقراط غنى نشط من بين أفراد حزب ترامينوس يدعى أنيتوس الذي نفى عام ٤٠٤ - والذي اشترك مع ترامينوس في إعادة الديوقراطية وعاون هذا في الاتهام مليتوس وليقونوس . « وتذهب شكواهم إلى القول بأن سقراط متهم بعدم الإيمان بالآلهة التي تقدها المدينة وبقوله بآلهة جديدة زيادة على أنه يفسد الشباب » . والواقع أن نقد سقراط الذي لا يتطرق إليه وهن وتهكمه المستمر قد أوجد له أعداء في كل مكان ؛ فأولوا « الإشارة الإلهية » و « الوحي » الذي قال عنه سقراط أنه يرشده في جميع الأمور

التي يتطرق إليه الشك فيها ، تأويلات مغرضه . أما من أُرهِقَتهم الأوليفاركية فقد اتهموه بأنه كان أستاذ الكثير من الأرستقراطيين ومن بينهم القبيادس وأفريتياس وأنه قد دأب على السخرية من انتخابات القرعة وسيادة عدم الكفاءة ولعل الرغبة لم تكن لتصل إلى حد طلب القضاء عليه ولكن مظهره كان يذكر بغاض لعين . وكان من الممكن أن يستعين بالهرب ، على التخلص من هذا الاتهام ولكنه أبى ذلك وهكذا وقف في سن السبعين لأول مرة أمام القضاة .

ولم يهتم سقراط بالدفاع عن نفسه شاعراً بسمو حقه ونبل منجاء وبدلاً من أن يناقش ويستسمح رغب في مناقشة الأدلة وتفنيدها كما كان يفعل أمام تلاميذه . وأعلنت إدانته بأغلبية ضعيفة وطلب منه أن يحدد لنفسه عقوبة فطلب أن تكفل له الدولة معاشاً في مجلس الشيوخ . ثم قبل بعد ذلك أن يؤدي غرامة قدرها ثلاثين جنيناً بضمانة أفلاطون ونفر من أصدقائه الآخرين . ولقد سبب كبرياؤه المتزايد غضب قضااته فحكم عليه بالإعدام بأغلبية كانت في هذه المرة أقوى بكثير من الأولى وزج به في السجن حيث مكث شهراً حتى تسمح نهاية أعياد دولوس بتوقيع العقوبة وكان الهرب ميسراً للمتهم أثناء هذا الشهر حين كان يستقبل أصدقائه يومياً أضف إلى هذا أن المعدات لم تكن تستنكر ذلك ولكنه رفض التخلص « كعبد مذنب » من الحكم الموقع عليه . وفي اليوم المحدد من شهر يونيو أو يوليو عام ٣٩٩ تجرع السم في هدوء . ولم يشهد أفلاطون وفاته لمرض أغمده .

تجديد سقراط

١ - سنين الترجل والتأمل

نهض أفلاطون تغمره الدهشة والألم والتفزز - لقد تبددت أوهامه ، واختفت أعز صداقاته وبقي وحيداً أمام حطام من كان مثله الأعلى - فكان من المتعذر أن يفكر في هذه الصدمة الأخيرة التي أنت على البقية الباقية من نفسه . وكلما ارتاع قلبه ، زادت قسوته في الحكم على اقريطياس يوماً بعد يوم إزاء طفيان الثلاثين . ولما لم يعد يتمثل وثن صباه إلا خلال حجاب من الفزع فقد قذف بنفسه بكل ما أوتي من قوة نحو سقراط الذي دلت حياته وكلماته ، على أن هناك بقية من منطق ، وبقية من عدل . ومما زاد في جرح نفسه أن ير اقريطياس وخرميدس يلقيان حتفهما في التطاحن الحزبي ، وأن المدينة التي لم تعد إليها الحياة إلا بعد موتها قد نظرت إليهما نظرتها إلى المجرمين ؛ ولكنه اطمأن حينما رأى المنتصرين يحاولون النسيان ، ويسعون إلى التضامن ، وآمن بنهضة أثينا وبمستقبلها . وقد خدعت الأوليفاركية تماماً حينما ظنت أنه سينضم في غير حرج إلى الديموقراطية التي أُعيدت إلى الحكم ، وكانت متأهبة تماماً لأن تثق به .

هاك ما وصلت إليه حكومة « ضحايا اقريتياس » : لقد قتلت في وحشية وجنون الرجل الذى حاول اقريتياس عبثاً أن يلزمه الصمت ؛ والذى رفض ، فى ساعة حرجه ، أن يعادى أصدقائهم ويصبح من صنائع الطغيان ! لقد اتهموا سقراط بالإلحاد ، سقراط أعدل العادلين . وقد ذهبت توسلات أفلاطون أدراج الرياح : إذ رفض فارس الميدان الكهل أن يتنصل من الاتهام الماكر الخطر كما رفض أن يتنجس أو أن يستغل مهارته أمام قضاته ، ورفض كذلك أن يهرب فى وقت كان من السهل فيه أن تشتري حريته بقليل من المال . والله يعلم أن أفلاطون كان على أتم استعداد لأن يهب ثروته جميعاً ثمناً لها . وفى تلك اللحظة أقعد أفلاطون المرض ، ثم وقع الظلم . فقتلت أثينا كما سفّحت الرجل الوحيد الذى كان فى مقدوره أن ينقذها إن كان لها أن تُنقذ . وحطمت الصداقة المقدسة التى احتفى فيها أفلاطون كما يحتفى فى وكر للعدالة والإيمان ، ماذا يفعل هنا إذن ؟ .. إنه مرتاع من أثينا ، ومن سياستها القائمة على العاطفة ومن أحزابها وثوراتها ، ومن جنوبها العاقى واعتدالها الماكر .. إنه يرغب فى الفرار .

لقد ذكروا له ما كان يعرفه مقدما من أن سقراط كان فى مماته بسيطاً نبيلاً كما كان فى حياته . ولنا أن نعتقد أن اقريتون الصديق الصدوق ورفيق صبا سقراط روى لأفلاطون بنفسه ما لم يقو هذا على رؤيته : من اجتماعات الأيام الأخيرة إلى الأيام الخالدة التى مضت كغيرها فى المحاورات الفلسفية والليل المخيم وخادم الأحد عشر إذ يعلن وهو يبكي أن الساعة قد دنت ،

والكأس الذى تناولته يد ثابتة ، وسقراط إذ ينصح أصدقائه بالهدوء والوقار بينما يفعل السم مفعوله ، وإذا بصوت اقريتون يتهدج رغماً عنه ، أثناء ذكر طريقته فى جمع آخر أحاديث سقراط ، فيخلق فيه ويغمض عينيه .

شهد اللحظات الأخيرة من حياة سقراط مع اقريتون وولده اقريتوبيل ، طلبه أثينيون متعددون يذكر منهم اشن من مقاطعة سقسطس وانتستن ومنكسين . ومن الطيبين سميانس وقابس ، ومن الميفاريين اقليدس وتربسيون وكان انتستن ونفر آخرون على وشك مغادرة أثينا للذهاب إلى ميفاريا فى ذلك الحين . وكانت مهمة الإلحاد قد حركت ، كما قال اقريتون ، فى الشعب المهتاج الشكوك القديمة فى الفلاسفة « محتقرى الآلهة » . وكان طلبه سقراط معرّضين دائماً لإهانات الشعب . هذا من ناحية وكان يؤلم اقريتون من ناحية أخرى أن ير أفلاطون قريب اقريتياس وخرميدس ، معرضاً لمضايقات بل ولحقه القوم الذين طالما آذاهم الثلاثون . ولكن أفلاطون لم يفكر بتاتا فى هذا الخطر بل كل ما هنالك أن ليس ثمة من عمل يقوم به هنا . لقد ذكر له اقريتون العجوز كل ما يمكن أن يذكره ، ولكنه شعر بحاجة إلى مزيد من قصص عن سقراط ، لا عن سقراط فى مماته بالغا ما بلغ من سمو ، بل عن سقراط الحى كما عرفه ورافقه ، وعن سقراط كما تصوره وتخيله قبل أن يصبح تلميذاً له . وقد اختير إجابة لهذه الرغبة الملحة اقليدس الذى طالما تردد عليه أفلاطون ومرعان ماسر نحوه بود لم يشعر به نحوه الآخريين فكان الأفضل إذن بالنسبة لأفلاطون أن يرحل إلى ميفاريا .

ما هي المدة التي قضاها هناك ؟ هذا ما لا نعرفه إذ أن رحلة ميغاريا ورحلة مصر وزيارة سيرينيا يشهد بصحتها تراث أهل الثقة . ولكن هذا الحكم لا يمكننا أن نطلقه على التفاصيل الروائية التي تضاف إلى هذا التراث . أما الشيء الذي نعلمه حق العلم فهو أن عملاً خصباً كان قد اكتمل في فكر أفلاطون أثناء السنين الأولى التي تلت موت سقراط . كان عليه أن يقوم بعمل تقويم لحياته وللحياة السياسية الأثينية ، وأن يهجر آماله في المشاركة السياسية ، وأن يتحول إلى دعوة من نوع آخر ، وأن يدرك الفكرة العامة والخطوط الرئيسية في هذه السلسلة من المحاورات التي ستوقف على إحياء ذكرى سقراط . ونخشى أن نكون قصصيين إذا أردنا تخيل التواريخ الصحيحة والمراحل المختلفة والحوادث الخارجية لهذه الرحلات . ولكننا لا نفرض إلا فرضاً قريباً من الواقع وهو في أغلب الظن ضروري إذا ما تخيلنا أن ميغاريا ومصر وسيرينيا كانت تمثل بالنسبة لأفلاطون مراحل في التفكير تنشأ مع التنقل . فقد تبع تطور تفكيره منحى رحلانه ولم يبعده هذا التفكير عن أيننا أولاً وقبل كل شيء إلا ليعيده إليها بفكرة أكثر وضوحاً عن المهمة التي تنتظره هناك .

وفي ميغاريا كان لإقليدس ومضيفيه الفراغ الكافي ليتذكروا فيما بينهم حياة أستاذهم . كانت تلك الحياة قليلة الحوادث ولكن أقل الحوادث شأنًا ، صار له معنى آخر في ضوء الوفاة والالتزام . هذا من جهة ومن جهة أخرى فقد كانت حياة سقراط بأكملها مبثوثة في محاوراته اليومية . وكلّ كان يحمل

ذكرياته . أما أفلاطون ، آخر من حضر من الطلبة فقد أصفى وحصل . وليس من شك في أنه قد نشأت من وقت لآخر مناقشات هادئة تناولت تواريخ المحادثات وتسلسلها فضلاً عن التفاصيل الدقيقة في شرح المحادثات وتقديرها . وجد أفلاطون في ذلك ، وهو على أهبة المجادلات والمعارضات ، الفروق في الطبع وفي التعليم وفي الثقافة . هذه الفروق التي لم يلاحظها إلا قليلاً في صلاته العابرة بالطلبة الآخرين ؛ ومع أنه كان راغباً في ألا يلتقي إليها بالآ فقد ضجر منها كما يضجر من فوزى يحاول أن تنال عمله الذهني بالتشويش ؛ إذ شعر بأن هذه الفوزى قد بدأت تعمل في خبث في الأحيان التي كان يريد أن يوجه فيها انتباهه إلى الروايات وإلى الشروح .

ثم أدرك ذات يوم أنه في حاجة إلى الوحدة . أما أحاديث مضيفه عن الحياة التي سلكها قبل مقابلة سقراط وعن تجاربه العقلية المختلفة فأعجب بها من قبل إعجاباً شديداً . فقد شغل اقليدس بالفلسفة على الدوام . وتأثر مذهب برمينيدس بوجه خاص ولم يمنعه تقديسه الشديد لسقراط أن يظل مخلصاً للكائن اللامتغير الذي تغنى به حكيم إيطاليا القديم . ولكن نفس أفلاطون كانت ممتلئة في تلك اللحظة بأفكار أخرى .

ولم تكن الرحلة إلى مصر لتحول بينه وبين هذه الأفكار . وكانت رحلة مهلة نسبياً ، وكانت تكاليف السفر من يبريه إلى هناك ضئيلة جداً ؛ تبلغ درختين . جذبت مصر اليونانيين منذ زمن بعيد فرحلوا إليها جرياً وراء التجارة الراجعة ورغبة منهم في اكتناء سر المجهول . ونحن نعلم أن سولون العظيم

صديق دروييد الكبير قد أقام في سايس بالدلتا حيث تحدث إليه الكهنة في شيء من الافتخار عن قدم تراثهم . ويذكر أفلاطون ، في شيخوخته ، زيادة على ذلك ، وكان مؤمناً بما حدثت : « إننا نجد لديهم أعمال نقش ونحت ترجع إلى عشرة آلاف سنة » وكان يعتقد أن المشرع اليوناني يمكنه : إذا حذا حذوهم أن ينظم ملامه أى شعب وموسيقاه كذلك بحيث يمكنه إبعاد كل بدعة مفسدة . ولكن كل ذلك الذى رآه في مصر مما جبل عليه سكانها من عدم إكرام الضيف ، ومن صلفهم في الربح ، ومن تسلط طائفة الكهنة ، ومن الأساطير التى ترامت إلى أسماعه والتى تذوقتها روح الفنان فيه أكثر مما تذوقتها روح المفكر ، كل ذلك كان قد عرفه قبل أن يغادر أثينا . وقد جذب العالم الجديد؛ من شعب مزركش وآثار ومعايدو كهنة ، انتباهه الخارجى ، واعلمه لم يكن ليترك في تأملاته العميقة إلا بقدر ما تتركه المتعة من أثر .

وفى عودته عرج على سرينيا ، حيث رغب فى مقابلة أحد أصدقاء سقراط الأقدمين وهو تيودورس الهندسى ، وكان قد عاد من أثينا عقب الانتهاء المحزن بعد أن أقام فيها مدة طويلة تتبع خلالها أفلاطون دروسه من وقت لآخر . وقد لذ أفلاطون أن ينصت إلى الحديث عن سقراط من ذلك المعجوز الجذاب قبل أن يشرع فى العمل الذى أخذ يشعر الآن أنه مرتسم أمامه . وكان يربط بين هذا المعجوز وبين سقراط قلب مخلص ورأى مشترك ينضج بالحقيقة وحب للشباب متبادل . وكان الرجل صديقاً لبروتاغوراس ومع هذا لم يكف بالبيان أو بالجدل . وكان رياضياً بالوراثه فأحدث تقدماً كبيراً فى نظرية الالامعقولات

وأكسب طلبته حماسة وحرارة في سبيل البحث والاستقصاء .

ولما ملّ أفلاطون الاغتراب وملّ المعابد والأسرار والتنبؤات أقبل في مشوق ، لبضعة أسابيع ، على هذه المحاضرات في العلم الدقيق ؛ وكانت الحجج « التي تشبه الماس صلابه » تتعاقب مع ثقة الأستاذ القديم في أعماله وفي تلاميذه أو مع ذكرياته الساذجة الباسمة فيما يتعلق بالذي شمرأ فيما بينهم بحضوره الممتع . وأخيراً عاد أفلاطون أثناء سنة ٣٩٦ على وجه التقريب إلى أثينا تلك ، حين أيقن بأن ثمة عمل عليه أن يقوم به .

٢ — حقيقة سقراط

هز أفلاطون موت سقط هزة عنيفة، ولكنه لم يترأصمه السبيل إلا رويداً . فقد بدا له هذا الحادث كحلقات غير متصلة من ومضات قوية تلتهم في وعيه من بعيد وبدت كما لو كانت ناشئة من أعماق المجهولة . ولم يدر أية عاصفة تلك التي كانت تستفزه حينما كان ينصت في هدوء وانتباه لروايات الطلبة . لقد رحل جائباً البلاد المجهولة لينفرد بالبليلة التي أصابت أفكاره ، ثم أسلس قلبه له القياد كما أسلست له نفسه القياد رويداً رويداً عند ما هدأت البليلة التي في نفسه وتمخضت عن نور ساطع أضاء الظلمة التي شملت حياته والظلمة التي سادت العصر الذي يحيا فيه ، وكشف له كذلك عن سبيل وأمل محقق . بدا هذا الضوء الصارم المنان كما لو كان إشعاعاً ينبعث من حياة سقراط ومن موت سقراط .

لم يقتصر جهل حقيقة سقراط وبنضه واتهامه وإعدامه على انتقوس والديمقراطية الأثينية فحسب ، بل تمداهم إلى تجبر أثينا الأعمى بأسرها وتجبر رجال دولتها الأبحاد ؛ ومن على شاكلة القبيادس واقربتياس ، فى كافهم المفرط للقوة والمتعة ، وكذلك أشبال الارستقراطية ، وإلى السفسطائيين وعجرفتهم وهوايتهم التى تشتري بالمال ؛ والشعب بأمره مع قواده الفاسدين ومضليليه وخطبائه وشمرائه وقصصيه . لقد اتهموه جميعاً لأنهم شعروا أن حديثه وحياته إنما تضمهم موضع الاتهام : « فإذا كان سقراط رزيناً فى حديثه صادقاً فيما يقول فمعنى هذا أن الحياة الإنسانية بأجمعها هى التى كانت مقلوبة رأساً على عقب وأنا نفعل عكس ما يجب أن نؤديه ، ولكنهم أبوا أن يروا حياتهم معكوسة » : لقد تردوا فى الجهل المطبق واستمروا مع ذلك فى اعتقادهم أنهم أكثر الناس معرفة . وطالما صدر عنهم هذا القول فى سخريه « هذا الثرثار الشرير المعتوه » الذى يبحث بين السحب عن المعرفة والخير والعدالة الكاذبة والذى يزدري جميع الحقائق التى يحياها عالم الشهادة .

كان سقراط على حق رغم هذا ، فإن مجد أثينا كان يخفى وراءه شراً مستطيراً . وقد انفرج هذا الآن عن فساد وعن نكبة لأن الجميع رغبوا عن معرفته وعن علاجه . ما فائدة السفن الحربية والتحصينات والترسانات والأسلحة برمتها ؟ وما فائدة غزوات السيطرة وبسط السلطان وما فائدة كل هذا الكسب المادى الذى هو ثمرة ما يسمونه : « السياسة العليا » إذا كان الشعب قد ترك إلى جانب هذا كله يتردى فيما هو فيه من جهل ومن ظلم ؟..

أليست السياسة الحققة هي الكشف عن هذا الشر المستطير واستئصاله قبل أن يخرج ثماره المميتة؟ .. كان سقراط وحده هو الذى وقف على هذا الشر فكان بذلك رجل الدولة الوحيد . أما الآخرون أمثال تيمستكلس وسيمونيدس وبركليس نفسه ومن بعدهم أيضا ثلة الخطباء والموهوبين ، فلم يكونوا سوى متملقين ومفسدين . أما الأوليفاركيون والديمقراطيون والمعتدلون فلم يكونوا أحزابا بل كانوا أهواء مشتتة .

تلك هي المسائل التى لام أفلاطون نفسه على عدم فهمها خلال السنوات الثمان التى عرف فيها سقراط معرفة أدق متبعمًا محاوراته وطرائقه وحياته . أى حماس ذلك الذى شعر به وأية ومضات تلك التى كشفت له عن أسئلة أستاذه المقلقة ! .. ولكنه قد عاش فى هذا العصر الذى صبغه بروحه وبكل لفحاته ، ثم تسلط عليه نزق الشباب وأعماء . ذلك ما أدركه أخيراً ، متعثراً أول الأمر متنوراً بعد ذلك رويداً رويداً من درس الاتهام ومن درس الإعدام . وهذا ما يجب أن يعلمه الآن لمدينة أثينا التى تاق إلى إنقاذها .

ولو أن أفلاطون فهم من المساهمة الفعلية فى إنقاذ المدينة أن يشارك فى السياسة العملية لكان هذا نزقا . فضلا عن أن هذا العمل لا يتم دون الاستناد إلى حزب أو جماعة مربية ... وأتى له بجماعة من الأصدقاء يقبلون فعل شيء يختلف عن تلك السياسة المبتذلة : سياسة المنفعة والهوى والكبرياء ... ! وما كان ليجهل ذلك الخنزى المخضب بالدم الذى يؤدى إليه هذا الضرب من السياسة . هذا ولو أنه قام بالمحاولة الأخرى منفرداً فى مقابل عمل الشعب

وتمصب الأحزاب لكان نصيبه الموت العاجل من غير فائدة تجنبها الحقيقة .
 كلا ، إن من الأفضل أن تفرض تلك الحقيقة المشتملة على السلام على نحو آخر .
 يجب أن تؤتى أثينا من نقطة ضعفها ، من ناحية حب استطلاعها العقلي ومن
 ناحية حبها للهجاء وللروايات الهزلية ومن كلفها بالنقاش والمجادلات والحجاج .
 يجب أن نفرع كذلك إلى ما للحقيقة والعدالة من معنى عميق فلعل البؤس
 والخطيئة المتزايدان لم يحياه بعد من قلب جمهور الأثينيين - وربما كان من
 الممكن أخيراً عن طريق الوضوح والسهولة والصراحة التي بمشها رغبة صادقة
 شعر باصطراعها في نفسه ، أقول ربما كان من الممكن عن هذا الطريق أن يؤلف
 بين نفر من شباب الأثينيين حول المنهج السقراطي يكون من بينهم من يخلصون
 الوطن في القريب العاجل .

لذلك ، ما كان لأفلاطون إلا أن يترك قلبه يفيض ، ذلك القلب الذي
 غمرته محاورات سقراط على النحو الذي عرف به أخيراً . كما غمرته شخصية
 سقراط . وبدلها الاستشهاد فتكشفت به وحده عن عظمتها الحقيقية ، ثم ذلك
 القلب الذي طغت عليه حياة ظلت محجوبة إلى أمد طويل وهي التي تبغ إلا
 التعبير عن نفسها في الفعل وفي الخلق .

كان شاعراً ، لا تزال حرارة شبابه تضيء تفكيره الذي صقلته التجربة .
 كم هي جميلة تلك القصة التي صاغها في مخيلته حول هذا الدرس الحى أعنى
 التعليم السقراطي ! كان ماضى أثينا القريب ماضى أمس وما قبل أمس يحوى
 بذور هذا الدرس الحى أعنى بذور الأحوال أو قل الأحوال التي كانت على وشك

الوقوع ولكنه كساها بسحابة من المجد تبتت في .. شباب القبيادس المزدهر وحيوة أقرينياس الطموحة التي تشير إلى شيء ما وطفولة خرميدس المتواضعة ونيقياس ونضوجة السياسى والحزبى ومشاهير السفسطائيين فى شيخوختهم البراقة ثم من هم دونهم شهرة ممن يتنازعون ، من خلفهم ، الطلبة وبعد الصيت ، وأخيراً صورة طفولته اللطيفة ، صورة جمهور المراضات الفتى وهو يهرع بين درس وآخر ليُشاهد سقراط ممسكاً بتلابيب أحد تجار العلم هؤلاء .

أى تباين فى المنظر ذلك الذى ارتسم فى غير دقة ثم تحدد واتضح ثم تمثل نهائياً فى ذهنه ، بين سقراط وأولئك الأشرار من قادة أثينا من كهنة وقديسين وخطباء سفسطائيين وسياسيين وولادة ! شعر أفلاطون بأن المسرح الذى طالما أحبه والكوميديات الخفيفة والهجاء الماكن بل ومهازل خيال الظل فى السوق وذكريات شبابه الماكن المذبذبة ملاحظاً فى خبث مفسراً فى سخرية ، المعجائب التى تصادفه ، شعر أفلاطون بأن كل هذا يصعد من أعماق مخيلته مصطحباً آثاره متجماً كي يهب الحرارة والازدهار لنسيج محاوراته الذى لم يزل جافاً .

أما المذهب الذى غصت به المناقشات فى العلم وفى العدل والخير وكذلك حب الحقيقة المفرط الذى ظهر فى صورة عزيمة قوية أو فى صورة تهكم والضوء الذى غمر هذه المناقشات بالجمال إلى جانب الابتسام فى هدوء ، أو السخرية فى رفق اللتين لمبتا دورهما فى هذه المناقشات ، كل هذا وجد منبئة فى شخصية سقراط الذى سيطر على عمل أفلاطون كما سيطر على روحه من قبل . خلق

أفلاطون سقراط من جديد وإعادة إلى الحياة محققاً ، مستجوباً ، مفنداً ، هازئاً أو وقوراً باشاً لنضارة الشباب كما يكشفوا له عن نفوسهم مثيراً العجب والكبرياء في السفسطائيين لكي يتفاخروا وتنتفخ أوداجهم فيجد في ذلك خير وسيلة لرفع النقاب عن جهلهم الفاضح ، متخذاً الجهل وسيلة ، جاداً في البحث عن الحقيقة لا لغاية إلا حب الحقيقة ثم مضحياً في سبيل هذه الحقيقة حتى يصل إلى السجن وحتى يبلغ الموت . ولكن أفلاطون قد نسي نفسه وراء هذا البعث وذلك التمجيد السقراطي واختفى أثره فلم يحى ولم يكن له وجود . وكان فناناً مبدعاً ضحى بنفسه في سبيل روعة عمله . كان طالباً مخلصاً أخفى نفسه لتظهر عظمة أستاذه في أحسن صورها . وكان مفكراً خلّص الحقائق المعقولة من أى ظل أو أثر من أثاره الخاصة ، فهل تواتر إلى سمعه أن ذلك الموت الإرادى كان ثمن خلوده ؟ ..

٣ - المحاورات الأولى

عكف أفلاطون على العمل بمجرد عودته . وسرعان ما ذهبت أئينا أمام رواياته النظرية التي أخذت تتابع دون توقف تقريباً . . . ولكن ما هو النظام الذى ساد تأليف هذه المحاورات الأولى ، وما هو النظام الذى امتد حوالى خمسين سنة . . . هذا ما يعترف النقد الدقيق بدمم الوقوف على حقيقته حتى الآن . وقد وصل إلينا ذلك الإنتاج بأكمله بل وأضيفت إليه أشياء أخرى إذ يتكوّن هذا الإنتاج من اثنتين وأربعين محاورة بينها سبع وعشرون أو

ثمان وعشرون يسلم الجميع بأنها صحيحة النسبة إلى أفلاطون ، وسبع ثبت منذ المصور القديمة نفسها أنها منتحلة . أما باقي المحاورات فلا تزال موضعاً للنقاش . وهناك أيضا تعريفات رغم كونها منتحلة تماما إلا أنها تحوى جزءاً كبيراً من التراث الأفلاطوني ، وكذلك ثلاث عشرة خطاب لا يوجه إليها النقد اليوم في عنف وإن كان قد قضى عليها مدة طويلة بأنها منجولة بصفة قاطعة . وأقل ما يمكن قوله عن هذه الخطابات هو أن أحسنها حالا يزودنا ، فيما يتعلق بحياة أفلاطون ، بمعلومات لا يمكن أن تصدر إلا عنه ، أو عن تلاميذه المباشرين . فالخطاب السابع منها خليق في مجموعه بأن يوضع في مصاف محاورات العهد الأخير الكبيرة ، وتتوفر في الخطاب الثامن نفس الاعتبارات التي ترجع نسبته إلى أفلاطون .

أما الغاية التي نرى إليها فهي تحديد الزمن التاريخي للمحاورات الصحيحة أو ترتيبها على أقل تقدير حسب تتابعها الزمني ماوسعنا ذلك . فالنقد الحديث ، في بحثه عن أساس أقل عرضة للتأثر بالأحكام الفردية ليسير عليه في هذا الترتيب ، قد اعتبر محاورة القوانين التي تركها أفلاطون دون أن يتممها ممثلة لآخر ما وصلت إليه اللغة الأفلاطونية . وعلى هذا يمكن أن نقيس عليها المحاورات الأخرى بغية ترتيبها . وذلك بأن نبتعد ، تبعاً لدرجة قرب المحاورات من أسلوب أفلاطون في شيخوخته . ووصل هذا النقد إلى أن يرتب في يقين مجموعة من المحاورات المتأخرة في ضمنها السفسطائي والسياسي وفيليبوس ، ووتيباوس وأقريتياوس والقوانين . وأمكنه أن يرتب في أغلب الظن مجموعة

سابقة على المتأخرة وتتكون هذه المجموعة من الجمهورية وفدرس وبارمنيدس وتيتاوس . ويبذل هذا النقد كل ما في وسعه كي يصل إلى تكوين مجموعة متوسطة لا يزال تكوينها وترتيبها مذبذبا إلى حد كبير وهى على ذلك يمكن أن تتضمن مينون وفيدون والمأدبة وأيون وميتكسانس وأوديموس وأقراطاليوس .

ولكن اليقين فى هذا المنهج يقل بطبيعة الحال كلما بعد الأسلوب عن أسلوب الشيخوخة الذى يعتبر محكما لذلك المنهج . نفهم من هذا أن من الصعب تحديد تاريخ محاورات الشباب، تبعاً لهذا المحك وحده فنضطر إلى الالتجاء إلى نظام من نوع آخر يفسح مجالا كبيرا للهوى والشك . فنحن فى هذه الحالة إذن لا نزال أقل قدرة منا فى الأحوال الأخرى على أن نجزم بأن محاورة ما سبقت أخرى أو هى تالية عليها ولكن يمكن القول بصفة قريبة جداً من الحقيقة أن المجموعة المكونة من هيباس الأصغر والدفاع وأيتفرون وأقريتون وهيباس الأكبر وليزيس وخرميدس ولاخس وبروتاغوراس وجورجياس ، قد نشرت فى الفترة التى تقع بين رجوع أفلاطون إلى أثينا (عام ٣٩٦ تقريباً) وبين رحلته إلى إيطاليا (عام ٣٨٨) .

ومما لا شك فيه أن محاورة «الدفاع عن سقراط» هى بمثابة المقدمة المنطقية لهذه المجموعة من المحاورات . كان هذا الدفاع عن سقراط . باعتباره متهما مقضياً عليه بالإعدام مهيبض الكرامة ، وكان الرأى العام يؤمن بهذا القول : أن المتهم يكون مذنباً فى أغلب الأحيان ومن مات متهماً فهو مذنب إلى الأبد .

فإن لم يكن مذنباً ، أفلم يكن في مقدوره أن يثبت ذلك وقد كانت مهنته الوحيدة المعروفة الكلام صباحاً وعشية ؟ ... - وإن كان التنفيذ السقراطى الشهير قد صلح لشيء ما فلمَ لمَ يستخدم لإفحام متهميه كما كان يفهم يومياً أبطال السفستائيين والخطباء والسياسيين الذين اختارهم ليكونوا ضحاياهم ؟ ... فإذا لم يقم بذلك - أليس فيه برهان على أن مهارته التى طالما امتدحها المادحون ليست إلا عبثاً لفظياً وفناً للتلاعب بالكلمات ؟ ... - كان هذا المنهج جديراً بأن يفتن صغار الأغرار ولكنه لا يصلح لأن يخدع من يحيون حياة واقعية من الرجال . فإذا لم يعرف كيف يصوغ الكذب ليضل قضائه فلمَ لمَ يفرع إلى العاطفة الإنسانية بأن يتضرع إليهم وأن يستثير شفقتهم بشكاواه التى كانت فى متناول يده والتى كان نجاحها مؤكداً والتى لم يزدريها من نازعه الشهرة ؟ كان متكبراً عنيدا واثقاً من الأيام الطويلة التى قضاها دون عقوبة . فلم يكن ياهظا ذلك الثمن الذى دفعه ثمناً لتطاوله على الآلهة والنظم والقوانين .

ستكون محاورات أفلاطون رداً على هذا الحكم السائد . فهى سلسلة مرافعات غير مباشرة وإقناعية إلى أقصى حد ، لأنها ستظهر براءة سقراط وكرمه من أفعاله . وحسنأ كان الرد جملة على البهتان الذى بعد أن أودى بحياة سقراط جرح ذكره وسخر منها . أليست خير وسيلة لجملة دفاعاً قويا هى أن يصدر على لسان المتهم ؟ ... - علينا إذن أن نعيد المقال الذى أدلى به أمام القضاة وأن نُضفي على هذا المقال دون تشويه ما للبيان من قدره خفية على الإيضاح وأن نحافظ دائماً على بساطة الطريقة السقراطية وعلى عظمتها . وبذلك

نحول هذا المقال إلى عرض واضح للدور الذى لعبه سقراط فى حياته ولرسالته المقدسة وما قدمت يدها من خير لم تُقدّر قيمته ، ولقاومته الحازمة للكوارث ثم لتضحيتها التى ارتقت حتى بلغت الذروة ... هذا عين ما فعله أفلاطون فى محاورته الموسومة « بالدفاع عن سقراط » .

أليس فى عجز سقراط عن دفع الاتهام الأخير دليلا على أنه كان متهماً سلفاً ؟ ... - لقد تشبع قضااته منذ نعومة أظفارهم بأكاذيب المسرح الذى صورته فى صورة سفسطائى ينقب فى السحب عن علم لا وجود له وفى صورة من يزدري الآلهة . هب أنه كوّن من حوله عدداً من الأعداء الذين أصبحوا يضمرون له البغض أفلم يكن هذا خضوعاً لوىحى الإله داف ؟ .. - أعلن هذا الوعى أن سقراط أكثر الناس حكمة . فلما شعر بأنه لا يعرف شيئاً أخذ يتردد على من يدعون الحكمة من خطباء وساسة وشعراء وفنانين وانتهى بإقناعهم جميعاً بأنهم جهلاء . وخرج من ذلك بأن كل ماله من تفوق فى الحكمة هو أن الآخرين لا يعرفون شيئاً ويتوهمون المعرفة وإن له هو هذا العلم على الأقل وهو معرفته بأنه لا يعرف شيئاً . رغب القوم ، الذين كشف لهم عن خداع أنفسهم فى موته وازدادوا كرهاً له لأن من استمع إليه من الشبان سلك مسلكه فى أفحام المدعين وفى إثارة الحقائق .

وهكذا وجد ضحايا سقراط السبيل سيادة للانتقام فوجهوا إليه فى غير ما مشقة نفس الإشاعات التى شاعت ضد الفلاسفة . ولكن ، كيف رغب سقراط فى إفساد الشباب ؟ .. - أليس من الجنون أفساد من تحيا بينهم سيما وأنا منكون

أول من يكتوى بشرهم؟ .. كيف تأتي لهم أن يهتموه بالشك في الآلهة وهم يهتمونه في نفس الوقت بإنصاته لصوت مقدس خفي ذلك الصوت الذى يسيره ويؤيده؟ ..

والواقع أن الخطر الحقيقى لم يكن فى ثنايا تلك الصيغ المتناقضة التى اختلقها بكل وقاحة كل من انتيوس وميليتوس . ولكن كان الخطر يكمن فى غضب الشعب الأزرق الذى سبب هلاك الكثير من الممتازين والذى سيسبب هلاك سقراط بدوره . ألم يكن تمتعاً جنونياً أن يصمم سقراط فى مثل هذه السن على ذلك السلوك الذى عرّضه الموت؟ .. إن كان ذلك فعلينا أن نسم الأبطال وأنصاف الآلهة بالجنون أولئك الذين يفضلون الموت على المذلة . إن سقراط الذى واجه الموت فى ساحات القتال إطاعة لأوامر بلاده ، سوف لا يعصى الوحي ويفر من سجنه لأن الفرار شر . إن رسالته لإصلاح البشر وسوف لا يقلع عن هذه الرسالة . لقد تقبل هذه الرسالة من أجل إصلاح أثينا ، فإن أهلكوه فالله قدير على أن يرسل فرداً آخرأ ، إن كان لا يرضيه أن ير أثينا تتردى فى الشر وتخلد فيه . هذا الفرد سيمتنع مثله عن المشاركة فى السياسة الفعلية لأن كل من التمس نفعا عن هذا الطريق اق حثفه سريعاً . صمد سقراط للظلم سواء فى عهد الثلاثين أو فى عهد الديمقراطيين . فلم يعترف على الإطلاق بأنه مذب ولم يتزلف قضاته . لقد آتهموه؟ .. فليكن ! . أما الغرامة فقد قبلها بعد لآى لأن أفلاطون واقريطون واقريطوليوس وابلودوروس سيؤدونها عنه .

ولكنه لا يستحق في الواقع إلا أن يعيش على نفقة الدولة في مجلس الشيوخ باعتباره مصلحاً للمدينة . أياحكم عليه بالنفي؟ بتاتاً! .. فكيف تتحمل نقده بلاد غير بلاده في حين أن هذه الأخيرة لم تطقه؟ .. أما أن يحيا دون أعمال فكره فليست هذه حياة . فالموت إذن سيكون مصيره ، وقد تقبله سقراط دون وجل . سوف لا يفرق الموت الأثينيين وسيكون لديهم بعد اختفائه نقد آخر يفوق الأول شباباً وقسوة ، بل ان الموت هو الدعة في نوم لا تشوبه رؤيا أو أمل فتان . ستكون الإقامة في العالم الآخر الذي يسكنه القضاة العادلون والأبطال الأقدمون.. خيرُ دار له . فما كانت الحياة وما كان الموت ليستأ إلى رجل الخير.

٤ — جورجياس أو العلم الضروري الوحيد

يمكننا أن نقول أن فقرة واحدة من محاوره الدفاع تلخص المنهج الذي يبدو أن المحاورات الأولى أرادت استيعابه . شرع سقراط ، لكي يقف على معنى وحى دلفوس ، في القيام بجولة نقدية تتناول استجواب جميع قواد المدينة كل بدوره وإقناعهم بالنقص . وكانت فصول هذه الجولة المتباينة ، فصولاً متنوعة من رواية اختلطت فيها المآسى بالمهازل ، هي التي أخذ أفلاطون يقذف بها الواحدة تلو الأخرى إلى الجمهور الأثيني .

في محاوره لاخس سخر من سلامة النية المعتادة العاجزة التي تراها عند الممتازين من الناس . والدان نبدلان يظهران في هذه المحاوره جادان في البحث عن وسيلة لتنشئة ابنيهما اللذين يحملان اسمي جديهما قيو سيديد وارسيتيد .

وهذا كل ما أمكن الأبوان أن يهباه ابنيهما مع ذكريات عن الأسرة براءة .
وهكذا عجز أعلام الدولة عن أن يجمعوا من أبنائهم شيئاً آخر غير مجرد .
فاكهة فجة . ولا طُلب من القائدين الشهيرين تقياس ولا خس أن يدلوا
برأيهما فيما يختص بخير وسيلة لتربية هذين الشابين تعذر عليهما تماماً أن يكوّنا
رأيًا واضحًا ، بل كان من الواجب أن يرسلوا نفسيهما إلى المدرسة . وقدمت
محاورة ايتيفرون عرّافاً شهيراً يتحكم حسب هواه في معتقدات الجمهور ويملمهم
احترام الآلهة ولكنه لا يفسر ماهية الدين وماهية التعميد . وفي المحاورات
الشيقة هيباس الأصغر وهيباس الأكبر وبروتاغوراس وجورجياس يظهر
السفسطائيون والخطباء وهم يغدقون في وعودهم ويظهرون فصاحتهم ، ثم
يستجوبهم سقراط ويعيدهم في مهارة إلى موضوع الحديث في كل مرة يشطحون
فيها ، وعبثًا يحاولون ستر جهلهم .

ولم يبد أي أثر مدرسي في النسيج المنطقي المحكم لهذه المؤلفات . فوجد
الأتينيون المولعون بالمرح فيها أنواع الروايات على اختلافها ابتداء من الدعابة
بين شخصين من جنس أضاحيك الألاعيب كما نرى في هيباس الأكبر ، إلى
الكوميديا في أسمي معانيها كما تقدّمها محاورة بروتاغوراس حيث يظهر أعلام
السفسطائيين على المسرح بمجرد الانتهاء من ديباجة المحاورة فيأخذ كل منهم
في الخطابة وسط حلقة مستمعية دون أن تفوته مراقبة الحلقات الأخرى . ثم
يجتمعون بعد ذلك للنقاش حيث تسمح ثنايا الحديث وسكنااته لكل شخصية
سواء صغرت أم كبرت بأن تعرض نفسها وتقوم بدورها . وفي الممازل وفي

الكوميديات المزنة على السواء يشمر القارىء بحركة حيوية ويتكوّن مُسئلة لها خطورة عظمى . وفى كوميديا الصراع الموسومة جورجياس يتزايد الانفعال من فصل إلى آخر حتى يبلغ أعلى درجة من درجات المأساة وتُصاغ المسئلة الخطيرة حقاً على هذا النحو ، «إلى من نعهد بنفوسنا وبنفس المدينة ؟ .. ماهو الشيء الوحيد الضرورى وأى خطة توصلنا إلى اليقين فيه ؟ .. من مخلصنا ؟ ..»

وضعت هذه المسألة فى مستهل محاوره بروتاغوراس كما لو كانت وعيداً منذراً . سأل سقراط ، الفتى هيبوقراط الذى حضر مسرعاً يوقظه فى الصباح الباكر طالباً فى شوق أن يقدمه لأحد كبار السفسطائيين ، إن كان يدرك مقدار الخطر الذى سيعرض نفسه له . فمن يكون ذلك الرجل الذى جهل عنه كل شيء خلا اسمه ومجده الزمان ؟ .. إنه تاجر وسمسار علوم . أيشترى غذاء روحه على هذا النحو من أول شخص يقابله . أليس فى ذلك «مقامرة بحياته»؟

يجلب غذاء الجسم فى وعاء ومن اليسور فحسه فى المنزل ، أما غذاء الروح فإننا نتقبله مرة فى العمر وبمجرد تقبله لايسعنا أن نتناوله أو نطرحه .. فقد ركب فينا إن خيراً وإن شراً . وفى قلب المحاوره يتابع سقراط ، وفى كثير من الدهاء ، مع بروتاغوراس المتملّص ، مناقشة تؤدى إلى نفس السؤال من أين يأتينا السلام ؟ .. وإذا سلمنا مع بروتاغوراس بأن السعادة ليست إلا قدراً معقولاً من اللذات ، ألسنا محتاجين أيضاً فى تمين هذا القدر إلى علم بالمقاييس؟ أعلن سقراط أن العلم سام فى رأيه . فما من شيء يمكن أن يستظهر عليه ، وفيه وحده يجب أن نبحث عن السلام الذى ننشده .

ولكن أى علم ؟ .. إن أقوى اتجاهات العصر لتجيب « إنه البيان » ،
ومن المبعث أن نبحت خارج نطاقه عن خطط معقدة كثيرة التفصيل ، وأن
نفنى حياتنا فى السعى وراء حقيقة لا يمكن الوصول إليها . إن الخطة التى تخلصنا
هى التى تجعل منا أسبأداً لمقائد البشر . والبيان آلة الإقناع التى لا تفشل ،
والعلم الدقيق المضى ليس من شأن البيان فى شىء ، وبفضله سيكون من
لا يعرف أكثر انقياداً ممن يعرف ، ولما كان البيان سيداً للعقيدة فقد أمسك
بسبل السلطان . إن البيان ليس سلاحاً للدفاع فحسب بل هو سلاح للهجوم
كذلك . فهو يكفل إذن لمن يجيد استعماله قدرة كاملة فى المدينة لأنه يوجد العدالة
الحقة والقوة وبدير أو يعكس العقبات الشرعية الخاسئة التى يخيل للجمهور
الضعفاء إقامتها فى وجه الأقوياء . إن الإعراض عن البيان والسعى عن طريق
علماء يجادلون بالباطل لإيجاد حقيقة وعدالة عالية لا يعلم أحد كنههما والتظاهر
بحب الحكمة وبذل العمر فى التهامس فى مكان قصى مع نفر قليل من الشبان
ليس هذا كله مسلك رجل فى الحياة بل هذا مسلك جدير بالعبود ، إنه إعداد
لارتعاد الفرائض وانفراج الشدقين والخضوع مقدماً لكل ضروب التنكيل
إذا قادت الظروف المرء إلى الظهور فى ساحة القضاء .

تلك هى النظرية التى عرضها وحاربها أفلاطون فى محاورة جورجياس .
لقد قسم تلك النظرية إلى ثلاثة صيغ متتالية : « إن البيان آلة الإقناع » فمن
الذى يستطيع أن يبسط هذا المبحث خيراً من جورجياس المتخصص فى سحر
الكلام ؟ .. يذكر تلميذه بواس الفلّو المتحمس الوقح فى سفه غايات هذا

الإقناع ويتشدد بأن البيان آلة القدرة التامة وخالق لتلك المتعة القصوى أعنى «الطغيان» . وأخيراً ، يعلن الأوليفاركي خالفليس النبيل المثقف الدمث أحياناً الفظّ في أحيان أخرى أن الحق للقوة ، ويكشف عن التعارض الأسامي بين الطبيعة والقانون ويبين وجه الدهاء في ذلك القانون حيث تكاتف الضعفاء لاستعباد الأشبال عن طريق مذاهب كلها أفك وبهتان، لقد تمنى بكل جوارحه أن يولد الإنسان الكامل ليهشم كل قواعد العدالة والمساواة ويعود إلى «حق الطبيعة» إلى القوة الهائلة الجبارة . هل نشر أفلاطون هذه المحاورة رداً على تلك الرسالة الباطلة «أتهام سقراط» التي كتبها يقيناً بعد سنة ٣٩٣ بوليقراتس السفسطائي ؟ .. قد يكون ذلك ، ولكن من المؤكد أن أفلاطون إذا لم يكن قد وقع على تلك الرسالة التشنيعية فقد عثر على كثير غيرها مما دفعه إلى تأليف تلك الرواية الشيقة في الأخلاق الإنسانية ليجمع في هذا المؤلف القوى الأفكار الخطيرة التي تفسر أمام عينيه انحلال الروح العامة وتفسر منهاج السياسة الأثينية الضال . يجمل أفلاطون هذه الأفكار الخطيرة في مقابل الحقيقة التي حياها سقراط ودافع عنها وفي مقابل المثال الأعلى الذي أخذ على نفسه تقديمه . فكانت محاورة جورجياس بمثابة دفاع وخطة للسير .

ليس للخطباء الحق في أن يسخروا مطلقاً من سقراط لأنه وقف حياته على البحث عن علم كلى ضرورى وليس لهم أن يسخروا من عجزه أمام اتهام جائر . أيدعى البيان أنه علم : ليس البيان إلا مهارة رخيصة وفنّا للتملق . ولكنه يضمن القدرة ؟ .. نعم ، بالنسبة لأولئك الذين يعبدون القوة ويتملقون

الطاغية أن كان حاكماً فرداً أو جمهوراً مستقلاً - ولكي يسايروا الظلم المتغلب جعلوا من أنفسهم ، قوما ظالمين . إنها لبضاعة رخيصة : أن نزرع الفتن لنحصده النجاة .. بل خير لنا أن نتحمل الظلم من أن نرتكب الضلال .

هل القوة إذن كسب ؟ .. - هل السعادة هي حق القوى القوي الذي أشاد بذكره خالقليس وهل هي قدرة الإنسان التامة وتزايد رغباته ومتمته تزايداً لا حد له ؟ .. - أليس حق القوة على النقيض من ذلك جنون معتل منغص من حك قروحه ؟ .. - إن السعادة هي الخير والخير سواء أ كان خير النفس أو خير المدينة أو كائنا ما كان فهو النظام والانسجام الداخلى والتوافق والخضوع للغاية التي نسعى إليها .

أن كان الظلم قد بدا منتصراً ، فيما ذكرنا ، فلنوقن أن الموت الذي يكشف عن النفوس سيورث الأشرار بؤساً دفيناً ، فالسعادة لأولئك الذين يقابلون الموت بقلوب طاهرة ، والشقاء لمن يخدع الموت في ظلمهم ! ..

٥ - الرحلة إلى إيطاليا

وتأسيس الأكاديمية

كل شيء يحمل على الاعتقاد أن نجاح المحاورات لم يكن مجرد نجاح في عالم التأليف ، فقد وجهت المحاورات الشباب الأثيني الوجهة التي كان يرجوها أفلاطون . ولقد اختار أفلاطون ذلك الضرب من الحياة الذي سخر منه في عنف ممثل الأوليغاركيين في اللحظة التي أخذ فيها النقاش يبلغ أشده بين سقراط

وخاليقليس بصدد التقابل بين البيان والفلسفة . لقد قرر أفلاطون أن يفر مدة طويلة إن لم يكن إلى الأبد، من المنتديات الأثينية ومجتمعاتها ومجاداتها السياسية وأن يختفي في موت ظاهري .. بأذلا حياته في التهامس في مكان قصي مع نفر قليل من الشبان .. وكان في سبيل تكوين جماعة منظمة من حوله، يمكنه أن يمهّد إليها بالسياسة الوحيدة للسلام : سيكون شبابا خالص النية متحمساً ثابت العزم ، عن طريق الدرس والتأمل المشترك في ذلك العمل النبيل وهو إعادة تنظيم المدينة على أسس من العدالة والقانون . كان وضع هذه الأسس في ذهن أفلاطون كما كان في ذهن سقراط ، مهمة علم العلوم . هذا العلم الأسمى الذي تتجه نحوه الفروع الأخرى أتجاهها نحو كمالها وغايتها هو العلم بالخير ، وهو في نفس الوقت أخلاق خاصة وأخلاق عامة وإسمه الحقيقي علم السياسة . وتميزه محاورة جورجياس بأن تجعله في مقابل تقليده الخداع أعنى البيان الذي أقحمه السفسطائيون في عمل السياسيين . إن هذا العلم لا يصدر عن التعمود والذاكرة والتخمين بل يستخلص عن طريق الاستدلال . وهو يقيم وزنا لما يرتكن عليه ويتقدم عن طريق الحد والبرهان واستخلاص النتائج ويربط بين أسبابه « بروابط من حديد ومن ماس » . إن الفكرة التي تذهب إلى أن العدالة الهندسية هي العدالة المثلى لدى الآلهة كما هي الحال لدى الإنسان ، والاستعانة بالعلماء الذين يقولون بأن الأرض والسماء ، والبشر والآلهة ، يربطها توافق تام والذين ينظرون إلى العالم تبعاً لذلك كأنه تأليف متجانس ، كوزموس ، إن هذا وذاك ينير لنا السبيل الذي يجب أن نلتمس فيه نموذج ذلك العلم . أدرك

أفلاطون ، تلميذ وصديق تيودوروس من سيرينيا ، أن المقتضيات السقراطية
للفكرة الواضحة والمعرفة التي لا تخطئ تفرض على علم الخير اتباع المناهج
والدقة الرياضية .

كان في إيطاليا الجنوبية في ذلك الحين «رياضي» ذائع الصيت كان يجمع
في شخصيته جمعا تاما بين مواهب العالم ومواهب رجل الدولة هو أرخيتاس
أحد مؤسسي الميكانيكا العلمية وعلم الصوت وهو كذلك كما يذكر أرسطو ،
أحد أولئك الباحثين الذين «سمو بالفيتاغوريين» . والواقع أن هؤلاء لم يروا
ما يزعمونه من تعاليم سرية عن حكيم ساموس وأقريتونيا ولكنهم بحجارة
للروح التي سادت الأدب في ذلك الوقت أحبوا أن يكسبوا مذاهبهم ماله مصور
القديمة من تأثير فاختفوا بطبيعة الحال في مدينة التراث الأورفي والفيتاغوري،
تحت ذلك الإسم الساحر الذي أصبح أسطورة منذ أمد طويل ، أعنى إسم
فيتاغورس . كان أرخيتاس يناهز أفلاطون السن ويجب أن يكون قد مات
قبله بعشرين عام وعلى وجه التقريب ، عام ٣٦٥ . عاش في مدينة تورينا في شمال
ذلك الخليج الذي تحيط به مدنا شهيرة في تاريخ الفيتاغورية والأورفية كمدينة
متابونتس وسيياريس وبقليا وكروتون . كان سياستيا قديرا وقائدا موفقا تولى
الحكم سبع مرات رغما عن القاعدة التي تحظر على المواطنين في تورينا أن
يتقلدوا هذا الشرف أكثر من مرة واحدة : وحكم في مسقط رأسه ، كما فعل
بركليس ، حكما مطلقا في الواقع دون الظاهر . ومهما يكن من أمر الظروف

الحقيقية التي قادت أفلاطون إليه فإن مقابلة حاكم فيلسوف رياضي قد تجاوبت،
في تلك اللحظة ، مع تمنياته الحقة .

كانت مدينة الباحثين عن السلام هذه تنبض بالحياة الماجنة كذلك . وقد
حافظت سيباريس على شهرتها ولكن تورينا نفسها ، كما يروى أفلاطون في
محاورة القوانين، كانت غارقة بأسرها في السكر طيلة أعياد ديونيسوس . وسيرى
أكثر من ذلك في سيراقوزا : من موائد لا ترفع وأفراط في المأكل
والمشرب، ذلکم ما قدّمته له ، بادی بادی ، مدينة الطاغية ديس الأول وما
حباه به قصره .

مزقت الأحزاب سيراقوزا بعد أن انتصرت على الغزو أثينا بفضل غير
هرموقراط الذي دافع عنها وبفضل مساعدات لأقيدومونيا الفعالة . ثم أقصى
هرموقراط وقامت ديمقراطية متطرفة . لم تتمكن من الحيلولة بين القرطاجنيين،
العدو القاتل ، وتدمير سيلينونتا وهيميرا واغتصاب أجريجانا في آخر الأمر .
وقتل هرموقراط في محاولته دخول سيراقوزا عنوة بعد أن كان قد قام بحرب
ضد القرطاجنيين على نفقته الخاصة . واستغل ديس ، أحد أنصار هرموقراط
الفتيان ، ثورة النفوس التي أحدثها سقوط أجريجانا فتقلد السلطة ثم أصبح
الحاكم الوحيد واستطاع ، بطريق المناورات أن يركز كل القوى الفعلية
في شخصه .

وفي عام ٣٨٨ هـ ، وبعد سبعة عشر عاما من حكم الطفيان ، كان قد
انتهى من إقصاء القرطاجنيين في الطرف الغربي من صقلية وجعل الجزيرة

بأكملها على وجه التقريب تحت حماية سيراقوزا بل وتقدم زيادة على ذلك بفتوحاته في إيطاليا الجنوبية وكان نفوذه قد قوى في اليونان بأسرها فأخذ يمد المدة لتقوية ذلك النفوذ ، خدمة لإطاعه الشاسعة ، بأن يشترك في الألعاب الأوليمبية التي تقام في الحريف القادم . وفي هذه اللحظة التمس منه صهره ديون ، الذي كان رئيساً لوزرائه والذي لم تنقطع رغم ذلك صلته بحكام تورينا أن يدعو أفلاطون للحضور .

لم يتمكن هذا ، يقيناً ، من التنبؤ بالنتائج البعيدة لتلك الرحلة ؛ النتائج التي جعلت من تاريخ صقلية تاريخاً لحياته إلى حد ما . ولكن مقابلة طاغية من شاكلة دندس انفتحت مع ما كان يخامره من أفكار كالحال في مقابلة رجل الدولة الفيلسوف أرخيتاس إن لم تكن قد زادت على ذلك . تشهد الرسالة السابعة على صحة ما تدفعنا محاورة جورجياس إلى افتراضه ، ففي اللحظة التي زار فيها أفلاطون إيطاليا وصقلية للمرة الأولى كان قد أدرك تماماً رسالته في الحياة ، وكان قد وضع في نفسه منذ ذلك الحين المبدأ الذي تفصله محاورة الجمهورية : « لن يسود السلام المدن إلا إذا أمسك الفلاسفة بزمام السلطة ، أو أن يتحول من يدهم السلطة من الرجال إلى الفلاسفة الحقيقية » .

لم يفكر أفلاطون مطلقاً في محاولة إدخال حكم الفلسفة بالقوة في مدينته الخاصة أثينا . ولم يؤلف محاورة أقرتوتون إلا ليظهر في سقراط ، ويذكر على لسانه احترام قوانين البلاد احتراماً مطلقاً . فعلى كل مواطن غير قادر على إصلاح بلاده بالوسائل المشروعة أن يلزم الطاعة والصمت . أما العنف فهو

عقوق بالنسبة للوطن كما هو عقوق بالنسبة للوالدين . فلم تكن لدى أفلاطون إذن فكرة أخرى حين ألف جورجياس إلا أن يكون أثناء الدرس أو أثناء الفراغ القادة الذين يحملون الأثينيين ، حين تسنح الظروف ، على قبول هذا النموذج من الاستبدادية المتنورة . ولكن أليس من الميسور أن نفيد من العنف القائم في الأماكن الأخرى وأن نختبر في هذه البلاد التي ستكون ميدانا للتجربة ، المستبدين الموجودين ؟ . . . ذلك هو المجهود المزدوج الذي شغل أفلاطون مدى حياته .

على أي صورة حاول هذا الإصلاح بالنسبة لديس ؟ . . . وهل كان في حاجة إلى أن يجرى هذه المحاولة على نحو خاص حتى يثير غضب الطاغية ؟ . . . ألم يكثف هذا الأخير برؤية الحالم ، الذي كتب في محاورته جورجياس صفحات دامية عن أركيلاوس طاغية مقدونيا ، يؤثر بسرعة فائقة في ديس الصغير ؟ . . . فكان أن اضطر أفلاطون ذات يوم إلى الإبحار على سفينة لاقدومونية وكانت اسبرطة في حرب مع أثينا منذ عام ٣٩٥ واتخذ أسطولها أجيئنا قاعدة له وكان يشرف من هناك على ميناء بيريه ويقلق شواطئ أتيكا . ولما نزل أفلاطون في هذه الجزيرة المعادية لأثينا بيع بيع الرقيق . واشترى لحسن الحظ أنسiris من سريينا فأعاده إلى أصدقائه وإلى الفلسفة .

وعلى الرغم من أنه طرد من بلاط سيراكوزا على هذا النحو من القحة فقد رحل منتصراً إلى حيد ما إذ ترك أحد حلفائه في مكانه . عمل أفلاطون دون قصد ، كما يذكر ، بتحويله ديون إلى أفكاره الإصلاحية ، على تحطيم

الطفيان ، ذلك لأن الأمير الصغير سيحيا ، وسط الفساد الذى يحوطه مشايخا للفلسفة . وكانت صداقة الأمير بالنسبة لأفلاطون ، منبعا للسرور الغزير ولآمال فشلت تمام الفشل . فلئن لم يتمكن من تحقيق المدينة الكاملة التى تمنها حتى عن طريق ذلك التلميذ المتحمس المخلص فعمل هذا السرور وتلك الآمال أن تساعد فى جو الأكاديمية الصامت على العمل البطيء فى التعليم والخلق الأدبى . ذلك العمل الذى يجب وأن يكون قد اكتمل له أثر يتضاعف فى الزمان والمكان .

أعجب أفلاطون فى إيطاليا بالأخاء القائم على أسس عملية الذى استحدثته الفيثاغوريون فرغب ، حين عودته ، فى أن يهب المجادلات التى كان قد بدأها منذ فترة من الزمان مع الطالبة الذين جذبتهم محاوراته ، شكلا ثابتا وتكويناً منتظما . فآلف فى حدود القانون ، جماعة دينية ، وجمعها فى مكان صغير مقدس موقوف على آلهة الشجر ، فى الحديقة التى تحيط بملعب الأكاديمية فى الشمال الغربى من أثينا على بعد ستة فراسخ تقريبا من باب ديفيلون . ثم أصبح المكان المقدس والأرض المحيطة به ملاكاً لما يمكننا أن نطلق عليه منذ ذلك الحين مدرسة الأكاديمية . أما بالنسبة لغرضها فكانت شيئا شبيها بمدرسة للعلوم السياسية ، وأما بالنسبة لتكوينها فكانت شيئا شبيها بمدرسة دينية على درجة من الاتساع ينضم إليها الأعضاء دون قيد ولا شرط ولكنهم يعملون عادة فى تكوينهم الأخلاقى والعلمى من حول أستاذ يوجه العمل ويمنع الشطط . كان المرمى البعيد لإصلاح المدينة أما المرمى المباشر فكان إصلاح النفوس عن طريق التطهير الذهنى والبحث العلمى والتقدم الحثيث نحو الحقيقة الكلية .

العلم المثالي

١ - الحقائق المعقولة

وضع أفلاطون نصب عينيه أن ثمة حقيقة . أليست هذه هي العقيدة التي بعثت الحياة في نقد سقراط الدائم وسميه وراء الفكرة الواضحة وتشدده في إيجاد التعريف الثابت المحدد الذي يستخدم قاعدة للفعل الإنساني معترفاً بها من الجميع ؟ .. ألم يكن في سبيل حقيقة كهذه وعدالة غير معتمدة على هوى الأفراد وقاعدة لا تتغير بتغير الأفكار ، أن ضحى سقراط أخيراً بحياته ؟ . إن الذي سمم المدينة ففكرة مؤداها أن الفرد مقياس كل حقيقة وكل قانون كما هو مقياس لا حساسة بالذلة والألم : فمقيدته ورغبته وفعله تخلق قانون الأشياء وكيانها كما تخلق قانون المجتمعات وكيانها فما من شيء إلا ويصدر عن نفسه وعن إرادته . فإن أردنا في وقت ما أن نصلح الحياة العامة وجب أولاً أن نصلح الأذهان فنوجهها من أجل ذلك نحو محور ثابت ونعيد ففكرة الحقيقة إليها ونبعث فيها من جديد حب الحقيقة الذي لا يقهر .

زاول أفلاطون هذا العمل في الإصلاح الذهني عن طريق تعليمه في الأكاديمية وعن طريق محاوراته . فهل يتطرق إلى نفوسنا شك إذا ما قسنا محصول أفلاطون ومنهجه في تعاليمه على محصول ومنهجه أعماله المكتوبة ؟

كان النسق المتشابه الذى سار عليه هذا الإنتاج الأدبى فى الفترة بين تأسيس الأكاديمية وبين رحلة صقلية الثانية مثلاً (٣٨٨ - ٣٦٦) كاف لأن يطمئننا (على صدق هذا القياس) . فلم تنضب مادة المحاورات إن لم تكن قد صارت أكثر اتساعاً وأكمل شكلاً وادسم مذهباً . والواقع أن هذه المحاورات تعتبر أصدق معبر عما كان يحدث فى المدرسة : فكانت تحافظ على التجانس بين قلوب الطلبة وكانت تحمل إلى المطالعين الخارجين هتافات تستميلهم وقد تقودهم يوماً إلى العتبة الخارجية .

فلا بأس علينا إذن إن تركنا أنفسنا تذهب مع فتنة هذه الدروس الروائية ولنقرر أن حديث الأستاذ فى الدروس الداخلية على شدة عمقه ، بالنسبة لمنضج الطلبة وحسن تكوينهم ، زاده زخراً ما كان يسوده من حياة ونزعة شعرية . وبذكر لنا ذلك أفلاطون نفسه الذى احتفظ عمله الأدبى ، خلال الأجيال ، بومضة فكره الحية : إن الدرس المكتوب كالتمثال الجامد لا يملك إيضاحاً ولا حجاجاً ، ولكن الحديث الذى نبث العلم فى ثناياه لا يكون بمثابة الصنم فى قلب الطالب بل هو حياة وهو روح .. تمثل الشك الجورجياسى وتمثل النسبية البروتاغورسية على الأخص بشكل جلى فى صيغة الفعل الإنسانى الذى يصل إلى أقصى درجات الحرية والخلق . ويحفز أفلاطون إلى أعماق بعيدة حتى يتمكن من إظهارها « جورجياس وبروتاغوراس » متشبثين بأطراف واهية فى لجة تصور ميتافيزيقى عام عن طبيعة الأشياء . فهو يكشف لنا فى بروتاغوراس عن تلميذ لهرقليطس ابتداء من محاوره اقراطليوس . فإن قال

الأول أن « الإنسان الذى أ كونه مقياس للوجود والحقيقة والأشياء كما تبدو لى ، هى كذلك فى الحقيقة لأن وجودها فى أية لحظة ليس سوى ما تبدو عليه » فإن الآخر قد أعلن أن « الأشياء جميعاً ليست سوى صيرورة وسيمال دائم ، فما من شئ يبق على حاله وما من شئ يوجد ، عدا هذا القانون ، إن كل شئ يتغير ويمضى دون توقف » .

. كيف يمكن أن تقوم للعلم قائمة فى هذه الأحوال ، ذلك العلم الذى يكفل دون سواء القانون والعدالة والخير وهى نظم المدينة المقدسة كما هى الحال بالنسبة للفرد ؟ .. ودّ أفلاطون لو يُظهر التعارض بين أستاذه اقراطيلوس وسقراط كما كان هذا ظاهراً فى وعيه فى مؤلف أدبى . فسقراط الذى عاشر اقراطيلوس فى صباه مدة قصيرة ، حمّله على الاعتراف بأنه لو لم يبق شئ على حاله لما وجد الفكر شيئاً يتناوله بالبحث .. وعلى ذلك لن توجد موضوعات المعرفة ولا ذوات عارفة . ولكن إذا أمكن أن نؤكد أن « الجليل والخير وكل ما يدخل تحت هذا الجنس من الأشياء » لها حقيقة وأن هذه الحقيقة ثابتة ، وهى على الدوام ما هى عليه ، ولا تتغير كل حين حسب وجهات النظر المختلفة ، وجب علينا حينذاك ، رغم عناد اقراطيلوس ، أن نقول وداعاً يا نظرية هرقليطس .

ومع ذلك فإن نظرية هرقليطس صحيحة ، هى صحيحة بالنسبة لكل ما يسمونه بالوجود والحقيقة لأنهم لا يمتقدون حقيقة إلمايرونه بأعينهم ويلمسونه بأيديهم . نعم ، إن ذلك العالم الذى يعيشون فيه ، هو حقيقة « عالم يمضى ويزول » وتلك الحقيقة التى يتظاهرون بإصابتها ليست إلا مظهرأ عابراً . قد أحبوا الأنعام

المتوافقة والألوان المتجانسة والأشكال المنسجمة ، تعلقوا بالبدن وبجماله الزائل ورغباته المتغيرة وإحساساته المحدودة . وهذا جميعه ليس إلا قصور وخداع وكذب . فذلك المظهر المتحوّل يمكن أن يصير موضوعاً لمقيدة أو لفكرة هي بدورها متغيرة على الدوام ولكنه لا يمكن أن يكون موضوعاً لعلم ما .

وما دمنا نؤكد ضرورة العلم ، وما دام وجوده مقدس بالنسبة إلينا كما هي حال المدالة للخير ، وجب أن نؤكد كذلك أن له موضوعات أخرى غير الأباطيل الزائلة التي تضال مطلبنا للمعرفة وللحب ؛ فموضوعاته روحية ومعقولة . لا تراها أعيننا ولا تلمسها أيدينا ولكن تدركها أذهاننا وتجد فيها الحقيقة الراسخة والوضوح التام والجمال الثابت التي تبحث عنها . ذلك أن الأشياء المحسوسة ليست في الحقيقة كائنات ، فليس لها شكل ثابت ولا بناء مجدد ما دامت تظهر وتختفي دون أن توجد بناتاً . أما الجواهر المعقولة فعلى العكس من ذلك هي كائنات حقيقية ، فكل منها بناءه وصورته (إيدوس) الثابتة المتميزة ، هي (إيد) أو (إيديا) هي المثل وهي ليست من تصورات النفس بل هي الحقائق الخالدة التي تضىء ومضائها النفس كما يدعم كمالها النفس ويغذيها .

فإذا كانت الحقيقة الحققة ، موضوع العلم ، مصنوعة من مثل هذه الجواهر الروحية ألا يحق للشعراء إذن أن يقولوا أنها بعيدة عن متناول الإنسان ؟ . . . انها من مملكة أخرى هي فوق مستوى البشر وهي قدسية . ولا يفتأ أفلاطون

من موضع لآخر في مؤلفاته : من فيدون إلى الجمهورية وإلى فدرس ومن فدرس إلى تيموس . يملن أن الحقائق الحقّة جواهر غير مادية سرمدية قدسية لا يمكن أن يتأملها إلا ذهن إلهي فحسب . فإذا أفدنا إذن من وجودها ، وهل يمكن أن نقف رغبتنا عند مجرد معرفتها فحسب .

٢ — الرؤيا السعيدة والوجود السابق

أخذ السؤال صورة أشد صرامة وأقوى شكا ابتداء من محاورة مينون « كيف يمكن البحث عن المجهول ؟ » — ليس ذلك مجرد تلاعب بالألفاظ — فالبحث عن شيء ما يقتضى إلماماً بسيطاً بموضوع البحث وبقتضى إمكان افتراض غاية للبحث محددة إلى درجة ما ، وبدون ذلك لا يمكن أن نتعرف موضوع البحث حتى لو وقفنا عليه عن طريق الصدفة .

أما رد سقراط فقد أصاب الكلمة المشهورة « لن تبحث إن كنت قد عثرت على موضوع البحث » إذ قال — « هذه المعجزة لا يفسرها إلا الكهنة الروحيون والشعراء الإلهيون إن كانوا مخلصين . فهم يذكرون في تعاليمهم أن الروح خالدة وأنها لا تخرج من الحياة إلا لتدخل فيها من جديد لأنها لا تفنى على الإطلاق . وبذلك تكون قد أبصرت كل شيء سواء في عالم الشهادة أو في عالم الغيب وما دامت قد وعت سالفاً كل شيء فإن ذكرى أولية تكفيها اليوم لتبحث فيها من جديد جميع الذكريات الأخرى » . وتنهنا محاورة فيدون إلى أن هذه الاستعادة وذلك التذكر إنما توقفنا على الصورة والظل فحسب —

أما الحقيقة عينها فلا نحصل عليها إلا أن عدنا روحا عارية قدسية متحللة من البدن . وعلى ذلك فالعلم الذى منهجه البحث ما هو إلا وسيط بين العلم الذى كان لدينا من قبل والعلم الذى سنحصل عليه فيما بعد . والمعرفة الإنسانية ليست إلا انتقالا بين نوعين من المعرفة إحداهما عالية على البشر والأخرى إلهية .

كيف نعبّر عن هاتين الحالتين من التنوير السماوى ، حيث لا يوجد على الأرض ما يمكن أن يرشدنا إليهما ؟ . . — وكيف نصور هاتين القمتين حيث تكون النفس عارية لا تجر فى أذيالها أى أثر لتلك الظلال البدنية التى نسميها صوراً ؟ . . — عن طريق الشعر وعن طريق الأسطورة . ولندكر أن الشاعر هنا إنما فيلسوف وصاحب عقيدة . فإن جارى تأليفاته فإنما يصدر ذلك عن بحث لاعن تخبط وهوى . فهو يثبت ، اعتمادا على تجربة لا يبحد أثرها واستدلال سيق فى تؤدة، الحقائق بدلا من أن يتركها دون التعبير عنها ، يخافى بخياله ما ينوب عنها ويستبدلها برموز يعرفها ثم يذكر لنا قيمة الإشارات وما تحمله من افتراض إيجابى ، ويذكر فى نفس الآن عدم كفاية الصور . ونجد ذكر الرؤية السعيدة السابقة على الحياة الراهنة ، تلك الرؤية التى ترد فى صيغة التأكيذ غالباً وفى صيغة الاحتمال أبداً فى محاوره فيدون بوجه خاص . كل ما هو روح يكون سرمديا . لأن حركة العالم تتطلب منبعاً لا ينضب ، هذا إن كنا لا نسلم بأن العالم سيفنى فى لحظة معلومة . هذا المنبع لا بد وأن يكون مبدءاً سرمديا على الإطلاق ، لم يبدأ ولن يفنى . ومحرك من هذا النوع

لا يمكن وأن يكون جسماً — لأن كل جسم يتلقى حركته من الخارج .
 فيكون إذن روحاً لأن الروح تتحرك بنفسها وهي وحدها التي يمكن أن
 تكون منبعاً تلقائياً للحركة لا ينضب .

وبذلك تثبت سرمدية الروح عن طريق استدلال قائم على ظاهرة الحركة
 الكونية الدائمة . أما شرح ماهية النفس وطبيعتها الدفينة فهو عمل طويل
 مضني . ولعل رمز إنسانى أن يهبنا فكرة عنها في سرعة .

لنتمثل إذن عربة يشدها جوادان ويقودها سائق وتكون الجياد والقادة
 بالنسبة للنفوس الإلهية كلها من جنس طيب وتظل هذه النفوس محلقة في
 المناطق السماوية دون جهد بأجنحتها القوية يفذيها على الدوام جوهر غير مادي
 هو الحكمة والجمال والخير وتسيطر من هناك على حركة الكواكب وفي
 الطليعة يذهب زيوس سيد السموات المطلق في عربته ذات الأجنحة يحكم
 السكون ويصرف أموره . وتتقدم من بعده مواكب الآلهة والشياطين في
 أحد عشر مجموعة أما الآلهة هستيا ، الثانية عشرة ، فتبقى وحيدة في بؤرتها .
 وأخيراً ، ومن خاف تلك النفوس التي لها الرغبة والسلطة ، تقوم النفوس
 الأخرى بهذه الجولة البديعة في طيران يتفاوت شدة وضعفا . ترى قائدهم
 مشوق لأن يرقى المنحدر العنيف الذي يصعد حتى يبلغ قمة القبة السماوية ،
 ولكن جيادهم ليست خالصة الدم . وعند ما تبلغ النفوس الذروة تستمر
 ما تستحق منها لقب الخالده حتى تصل إلى خارج نطاق السماء وتستريح فوق
 « ظهر السماء » وتظل مرفوعة أثناء دوره اليومية تتأمل في هدوء المنظر
 الآخذ بالألباب .

لم يستطع شاعر حتى الآن ولن يستطيع أحد أن يصف ذلك المكان للسماء الوصف اللائق به . هنالك تماين الآلهة والنفوس القدسية الحقيقة الحقة التي لا تقدم للتطلع لونا ولا شكلا ولا تقدم للمس سطحا محسوسا ، تلك هي وحدها الحقيقة التي يتأملها العقل المحرك للنفوس . وهي المدالة والحكمة والعلم ، ولا نمنى بالعلم ذلك الذي يتعلق بالأشياء الزائلة ولا ذلك الذي يتغير على الدوام تبعا للموضوعات المتبدلة التي نسميها كائنات ولكننا نقصد العلم الذي يظل متعلقا بالحقيقة الثابتة .

ولكن النفوس جميعا لا تبصر مطلقا على هذا النحو من الكمال ، إذ تتمذر علينا قياده دوابنا : فقد يكون أحد الجياد طيبا أصيلا في حين أن الآخر يكون رديء المولد شموسا . تحوز مثل هذه الروح في الارتفاع ما يبلغه القائد ساعة أثر الآلهة عن كسب مجاوزة القمة إلى ما يلي قبة السماء حيث تصل إلى إدراك الجواهر الفاتنات . وهناك تسكدح طويلا لتحفظ نفسها لأن الجياد تجمع وتتمرد ولكنها مع ذلك تتأمل المنظر القدسي ما بقيت دورة السماوات . وقد لا تسمع روح أخرى بذلك المنظر إلا لحظات متواترات . وتبذل غيرها مجهودات عبثا دون أن تحظى بمجاوزة قبة السماء فهو صراع يائس في الزحام الصاخب للعربات التي تحاول الصمود فتزلق وترتد وتقذف نحو الداخل . فتختلط الدواب ببعضهم البعض وي طرح بعضهم بعضا ، وتركض النفوس مدنسة الأطراف مهيمضة الجناح . إنه وأيم الله ، الهبوط العميق إلى أدنى الراتب حيث تنبسط الأرض التي نحيا عليها وما هي ذى النفوس الجرداء تفوص

بأجنحتها في اليم أرضى نسمه البدن .

وها هو ذا قانون ادراستيه : بقدر ما تكون رؤية النفوس غير تامة ومعرفتها مختلطة بالرجم والظن يكون هبوطها مسحوبة بأثقال النسيان . ثم تسع مراتب لهبوط النفس هي : فيلسوف محب للعلم أو للجمال ، ملك عادل أو قائد جيش محنك ، سياسي أو حاكم ، رياضي من رجال الملاعب أو طبيب ، قديس أو كاهن صاحب أسرار ، شاعر أو مقلد آخر ، فنان أو عامل ، سفسطائي أو قائد شعبي ، ثم يأتي الطاغية في المرتبة الأخيرة ؛ تلك هي المراحل التسع التي تحياها النفوس هبوطاً أو صعوداً تبعاً لاستحقاقها في اغترابها عشرة آلاف سنة قبل أن تسترجع أجنحتها وتستأنف تحليقها نحو الرؤا السماوية . ويسترجع الفيلسوف وحدة أجنحته في العشرة الثالثة مادام قد حيا ثلاث مرات متعاقبات حياة الحكمة هذه في تذكر واشتياق للحقائق التي سلف أن تأملها .

خيال خصب وبناء ضخّم لفق فيهما أفلاطون بين آراء متباينة : فجامع بين فلك علماء إيطاليا وجولة الأورفيين والفيثاغورين الصوفية وقولهم في التناسخ ووصف انبادوقليس للخطيئة والخلاص في حديثه عن التطهر وعجائب الشواهد التي يستدل منها المريدون على سبل الحق وآيات الصدق وأهل النعيم . ولكن هذه الألوان المتعددة تأخذ في الاختفاء رويداً رويداً خلف وشاح من التصوف الأفلاطوني حيث تكون الصيغة النهائية مصوغة على الدوام في وضوح وذكاء وترؤ وتوقد روحي . وهناك حيث يمشق المريدون المآذب والتراقص المرح في مروج برزيفون الخضراء أخذت النفوس الأفلاطونية

تأمل في وضع الحقيقة الماهيات اللامادية . وسينشأ عن تذكرها فيما يلي محاولة للتحليل والتركيب تخلق التعريفات العلمية كما ينشأ عنها الوجد الإلهي الذي يسمو بالقلب عن مستوى الأهواء الأرضية الخائبة .

٣ - الرؤيا السعيدة والخلود

تتعرف النفسُ الفلسفية نفسها بوجه خاص في ذلك الوجد الإلهي . ولما كانت سجيناً داخل سياج البدن وتعرف أن ليس لها أن تهشمه في عنف محافظة على وحدة الرغبة الإلهية ، تظل محاصرة بهذه الرقابة الأرضية حتى يلد لأسيادها أن يخلصوها . ولكنها تستحث منذ الآن يوماً بعد يوم وساعة بعد أخرى وتتعجل ما وسمها ذلك لذة الالهة هذه ، وتعمل بقدر ما أوتيت من قوة في إفناء هذا السور المادي والقضاء على ماديته . وما يتفلسف الفيلسوف إلا ليموت وتقبض روحه : فما حياته إلا حنين حار للموت المنجى ، فقد علم من ولعه بالتفكير أن مملكته توجد في مكان آخر وأن الحقائق التي تحياها لا تتعلق بعالم الشهادة هذا . تلك الحقائق التي لا يراها الآن إلا بعيدة مشوهة خلال قضبان من حديد ، والتي سيصل إلى معاينتها بمجرد تخلصه من بدنه . ذلك هو الدرس الحالد الذي علمه سقراط أصدقائه أثناء انتظاره للساعة التي تخلصه من أغلاله وذلك مارواه أفلاطون عن « سر الفيلسوف » ووسمه « فيدون » .

وُجدت على الدوام بجانب ديانة البلاط والأرستقراطيين التي تنقلها إلينا عادة أشعار هوميروس والتي لا ترى أن ثمة حياة أخرى للنفوس إلا في هذه

الظلال الخائبة الحائرة الشاكية لدى « هادس » نقول وُجدت إلى جانب هذا في الديانة الشعبية عبادة خاصة توقف للأُموات ولآلهة الأُموات . كانت هذه العبادة متأثرة بمخاوف خرافية وهي إنما تبجل الأُموات أولاً وقبل كل شيء لتبعد شرها عن الأحياء . ولكن الحياة في ديانة ديونيسوس ، التي تقرر أن الموت والبعث الإلهي ماهما إلا رمزين للمريد ، وعلى الأخص في ديانة الجمعيات السرية الأورفية والفيثاغورية ، أصبحت موضعاً للاهتمام وللطقوس ولتعالم خاصة بها .

كانت هذه التعالم في الواقع ، أشبه بالبيانات من المذاهب المحكمة . فالمرید الذي يعرف أنه من دم ديونيسوس ومن صلب تيتانس « ابن الأرض والسماء المنتثرة فيها النجوم » كانت له بطبيعة الحال امتيازات ضخمة على البشر الآخرين كما هي الحال في كل الجمعيات التي لها صفة سرية إلى حد ما . ففي حين أن البشر العاديين يذهبون إلى الحياة الثانية دون إرشاد ولا شفاعة تراهم يتخبطون في طخية المستنقع العمياء ، يتعلم المریدون حينما يستوعبون الأسرار ، خفايا الطريق وكلمات السر والألقاب التي يستمعون بها أمام الملكة برزيفون . وقد تعلق عند الحاجة في رقبة المتوفى صفيحة من ذهب ، ملفوفة على شكل أسطوانة تحمل في كتابة دقيقة في أسطر مقفاه إرشادات عن الطريق والدعوات الصالحات . ولما كان المرید من سلالة الآلهة وكان طاهراً ومن جنس خالص ، علم أنه سيجاور الآلهة وسيشاركهم في الجلوس على مائدتهم المتوجة بالورود . وكما يذكر أفلاطون في محاوره الجمهورية ، سيمضي وقته في مآدب صاحبة

« كما لو كان خير جزاء على الفضيلة لا يمكن إلا أن يكون سراً أبدياً » .

أما الصفاء الأخلاقي فلم يُلقَ إليه بال ، كانت المسألة تتعلق بصفاء الجنس و صفاء الطقوس . ويصر أفلاطون على القول بأن ليس ثمة مذهب واضح حتى لدى أكثر هؤلاء المبشرين تفقهاً في الحياة المستقبلية ؛ فقابس وسيمياس اللذين أخذنا عن فيلولاوس الفيثاغورى من مدينة طيبة ، يعترفان بأنهما لم يستخلصا منه أية معلومات محددة . والواقع أنهما يذكran في وضوح أن البدن (سوما) رمس (سيما) ولكن دورة البعث تتكرر إلى الأبد ، وبذلك تقلل من شأن فكرة الجزاء إلى حد ما . كما أن الروح التي تتصور كرماد تحمله الرياح أو توافق أنماط كما يذهب أدق المفسرون لا تصلح كثيراً لأن تخلد .

ماذا عسى أفلاطون أن يفعل ؟ .. سينهل من مجموعة الأسرار الإليوزينية أو الأورفية ومن الصور المختلفة للخرافات الشعبية ومن رموز الفيثاغورية ومن طقوسها في التطهر ومن وسائلها في التقشف . وسيأخذ كفايته من كل الانبجاءات سواء من البيانات الكاملة أو من المفاحي المشتقة ليستخلص أساطيره عن العالم العلوى ، وسيحول الرموز والطقوس والتعاليم إلى أشياء معقولة وإلى مذهب أخلاقي وروحي .

٤ — أساطير الخلود

يطيب لأفلاطون ، في الواقع أن يتخيل العالم العلوى ، وأن يصور لنا السبل المؤدية إليه أو الواردة منه ، والمحكم المنصوبة والأحكام التي تصدر فيها ،

والأصقاع الرائعة أو المروعة التي ستصبح مآلاً لمصائرنا المستقبلية .
 أما أسطورة جورجياس الختامية فلا تخرج عن أن تكون أيضاً خرافة
 قصيرة عليها تعليق مفصل . حدث أيام كرونوس وفي أوائل حكم زيوس أن
 قوضى البشر أحياء . فحضر فلوطون ومراقبو الجزائر السعيدة رافعين إلى زيوس
 شكواهم أن قد أرسل إليهم أناس غير لائقين إطلاقاً لمثل هذه الإقامة . فقد
 كان جمال البدن وألقاب العائلة والثروات الطائلة تعمى القضاء عن وضاعة
 النفوس . فقضى زيوس بنظام حكيم أصبحت النفوس كلها بمقتضاه تحاكم
 منذ ذلك الحين وهي عاربة تماماً ، فلئن كانت الجنة تحتفظ بكل ما للبدن الحى
 من جروح وآثار عميقة فإن النفس كذلك وقد أزيح عنها غطاؤها تكشف
 عما فيها من قروح واعوجاج وأورام ، تلك الآثار التي سببها الظلم على مر الأيام .
 فإن كانت لازالت قابلة للشفاء كفرت عن خطاياها في عذاب وقتى لأن التعذيب
 وحده كافٍ للتطهر . وإن لم تكن ، فقد كُتب عليها العذاب الأبدى لتكون
 تحذرة وعبرة للآخرين .

وتصور لنا محاورة فيدون النفوس بعد مماتها مباشرة يقود كل منها
 شيطانها إلى مكان الحشر ثم تسمى في جماعات يقودها مرشد فرد لا يتغير أبداً
 في مسالك معقدة شاقة تنتهى إلى حيث هادس . وتجمع بعض النفوس إذ تجذبها
 إلى الوراء ذكرى الجسد الذى طالما تدلّته في حبه فيعماني الجنى الشيء الكثير
 حتى يفلح أخيراً في إيصالها إلى حيث مصيرها النهائى : إلى جحيم أليم أو إلى نعيم
 مقيم . أما الجحيم فهواية بعيدة الغور في أسفل الأرضين تمتد في جوف الأرض

من جانب إلى جانب . أما النعيم المقيم فسطح الأرض نفسه .

إننا نزيد في الواقع من ابتأس أنفسنا عن طريق ضلال مزر . فنتوهم إننا نسكن سطح الأرض في حين أننا لانقطن إلا قشرة ضعيفة انشقت عن هذا السطح . إن الأرض كرة عظيمة الكبر تسبح في محيط أثيرى ويبدو هذا الأثير لمن يعيشون على سطح الأرض سماء فيها شمس حقة تضيء لهم . نستمتع عن ذلك بتصوير بحيرة يعيش على ساحلها نمل وضفادع ، فإن مثل هذه البحيرة أو المستنقع تبدو بالنسبة لغيرها بحراً عظيماً . وما نحن إلا حشرات دنيئة تحيا على هذه الشواطىء ، تتخذ من الهواء سماء لها وترى فيما تتوهمه من سماء ، صورة خافتة للشمس الحقيقية . ولكن السعداء يسكنون الأرض الحقيقية حيث الألوان صافية والذهب والفضة خالصين والأحجار من زمرد وزبرجد ، وحيث تكون الحيوانات والنباتات أكثر تنوعاً وأفضل نوعاً ، لا تسكن المآبد تماثيل صماء بل آلهة أحياء يحادثهم السعداء ويتأملونهم وجهاً لوجه .

ويروى لنا الكتاب العاشر من الجمهورية أن ارالفمفلياني ابن ارمنيوس الذى كان قد حسب في عداد الموتى عشرة أيام خلت من معركة ما ، أفاق في اليوم الثانى عشر حين وضع على المحرق ، فأخذ يذكر ما شاهده .

حينما غادرته نفسه ذهب أثر النفوس الأخرى إلى حيث توجد ثغرتان في السماء مقابلتان لثغرتين مثلها على الأرض . وقد أخذ القضاء مجلسهم بين هذه الثغرات . وترحل النفوس التى يقضى في أمرها إما نحو السماء أو إلى أسفل الأرض تحمل من قبل أو من دُبُر كتابها الذى يقضى فيها بالشقاء أو السعادة .

وتصعد من الأرض من جهة أخرى نفوس غطاها التراب أو الوحل وتهبط من السماء نفوس أخرى تامة النقاء . ويلتئم جمعها في المروج حيث يتساقطن الحديث فيما مر بهن من أحداث ، فتروى بعضهن ماعانت من آلام أو ما رأت من عذاب في رحلتها خلال ألف عام تحت سطح الأرض وتقص بعضهن ما تذوقته من سعادة وما تأملته من روائع . إنهن يجازين على ما قدمت أيديهن من خير أو من شر بأن يضاعف لهن الثواب أو العقاب . وبعد انقضاء هذا الشقاء ترغب النفوس الصاعدة من الأرض في النفوذ إلى سطحها فلا تكاد نفوس المجرمين الخطرين ونفوس الطغاة بوجه خاص تدنو من الهواء الخالص حتى تهدر الهاوية هديرًا مروعًا مخيفًا - وسرعان ما يقبل رجال من نار كانوا رابضين على مقربة من المكان فيجذبونهن إلى الورااء ويقذفون بهن في الداخل .

وبعد أن تمضي النفوس سبعة أيام تتساقط الحديث على هذا النحو في هذه المروج توجه نحو عمود النور الذي تشد إليه روابط السماء . حيث تتربع إلهات المصير الثلاث لأخيريس وكلوتوس وأثريوس ، بنات الضرورة . وعلى ركبتى لأخيريس يجلس كاتم سرايلوزيس ممسكا بالمصائر ثم يقذف بها في الهواء فتأخذ كل نفس ما وقع أمامها من مصير وهي على يقين من اللحظة التي سيترك لها فيها الخيار وذلك هو اختيار نوع الحياة - برهان قاطع لم تُعد له العدة في الحياة الدنيا بمقارنة الأحوال الإنسانية في دقة بالكشف عن قيمتها الحقيقية .

وحين تختار النفوس مصائرهما ترحل وتجتاز سهل النسيان القاحل (ليتيه) وتتوقف قريبا من نهر الغفلة (إميليس) حيث تغط في نوم عميق . ولكنها تستيقظ

فرزة في منتصف الليل من هزيم الرعد ، وتزلزل الأرض ، وتجرف النفوس في الحال ، كالشهب الساقطة ، نحو الأماكن التي تنقمص فيها جسداً جديداً .

٥ - البراهين العقلية

ولكن ألا يخرج الخلود عن كونه خرافة أو على الأكثر أمنية عميقة عذبة ؟ ... ييذل سقراط قصارى جهده في فيدون ليقيمه على حجج مقنعة .

ألا يفترض هذا التذكر وذلك الاسترجاع للمعرفة السابقة ، التي تستطيع وحدها أن تفسر نزوعنا نحو العلم ونحو إمكانية هذا العلم في نفس الآن ، أن روحنا قد حيت حياة قدسية نقية قبل أن تنقمص البدن والأعضاء الحاسة ؟ ... أليس وجود النفس السابق له في هذه الحالة أيضاً من اليقين الذي لا يتطرق إليه الشك مثل ما لوجود الجميل والخير والعاقل والمساوي والحقائق المعقولة كلها التي تؤيدها استدلالنا اليومية ؟ ... - غير أننا قد نقابل من المجادلين العنيدين أمثال قابس من يقول : « مع التسليم جدلاً بأن النفس وجدت قبل مولدنا فما الذي يدلنا على أنها لا تموت معنا ؟ » وقد يتأثر الحدث الذي يوجد بيننا بتلك الأوهام التي تغذي القصص الشعبي - فيخشى أن تشتت النفس كالدهان حين تهب الريح ، عند ما تخرج من الجسم الذي يسجنها والذي يلم شمعها . لذلك يجب أن نثبت خلود النفس ببراهين مباشرة .

وأول برهان معروف على بساطة النفس هو الذي يذهب فيه أفلاطون

إلى « مشابهته النفس للحقائق المعقولة » . وكل ما فعله في هذا البرهان هو أنه سبق ديكارت إلى القول ، على طريقته الخاصة ، بأن جوهر النفس هو التفكير .

وطالما كانت النفس مرتبطة بالجسم وأعضائه فإنها تظل أسيرة في معترك الأصوات والأضواء والمذات والانفعالات الحادة السريعة التي نسميها الأشياء . ويطغى عليها اضطراب هذه الأشياء فتخبو وتنشئ ولا تهتدى أبداً . ولا تلتئم ولا تعود إلى جوهرها إلا إذا تعلقت بالحقائق المعقولة وبموضوعاتها المجردة اللامادية على الإطلاق والتي لا تخضع للصيرورة أبداً ، وذلك هو التفكير . فالنفس هي أذن تفكير بالذات ، وعاكس صاف لجواهر صافية وهي صورة للمثل ومرآة لها . فالنفس إذن شبيهة بالحقائق المعقولة على قدر الإمكان لأن الحقائق المعقولة تكون شفافة تماماً أمام التفكير السليم . والتفكير السليم ، على وجه الإطلاق ، ليس إلا شفوفها عينه .

وبذلك تكون النفس ، التي تحاول الهروب من البدن بل والتي تمكف داخل الجسم على فكرها لكي تمتلك نفسها قدر المستطاع ، هي من نفس نسق الذهن الخالص وموضوعاته وإن كانت لا تطابق الحقائق المعقولة مطابقة تامة فإنها شديدة القرب منها . فمن إذن يعتقد أن هذه الماهيات القدسية اللامادية البسيطة اللامتغيرة ، قابلة لأن تنحل وتلاشي ؟ .. - ففي حين أن الجسم ، مع العلم بأنه قابل للانحلال إلى حد كبير يحتفظ بهيئته وشكله بعد الموت بمدة طويلة ، وأن الأجزاء الصلبة من مادته تبقى مدداً غير محدودة تقريبا ، فمن ذا

الذى يقبل التسليم بأن النفس ، ذلك الفكر البسيط اللامادى كما هو حال موضوعاتها ، يمكن أن تنشئت أو تتلاشى بمجرد الموت ؟ ... -

وهكذا فالنفس متميزة تماماً عن الجسم كما يمكن أن نحيا بدونه . ولكن أليست أنعام النأى كذلك متميزة عنه ؟ .. - لتكن غير مرئية قدسية لاجسمية ولكنها مع ذلك ليست إلا الإمتتار الواجب للأوتار الجسدية ، فهي تتلاشى إذن بمجرد تقطع هذه الأوتار . ويرد سقراط على هذا الاعتراض مذكراً ببراهينه السابقة فيقول - أن توافق الأنعام لا يوجد وجوداً سابقاً على وجود النأى وقد رأينا ، عن طريق التذكر ، أن النفس تسبق الجسم في الوجود . ولنلاحظ ، بهذه المناسبة ، أن العقلية القديمة كانت تنظر إلى هذا السبق في الوجود باعتباره بديلاً عن الخلق بل ربما اعتبرته البديل الوحيد الذى يمكن أن يقوم مقام الخلق . بيد أن هناك أسباب أخرى تعترض القول بأن النفس تقتصر على كونها مجرد انسجام .

فالانسجام والتوافق إنما هو حاصل أشياء أخرى : إذ يعتمد فى كل لحظة وبكل معانية على التوتر والارتخاء والذبذبات . فلا يمكنه إذن أن يقاوم هذه الأشياء على أى نحو من الأنحاء بل أنه ضعيف التدبير لها . ولكن النفس تدبر وتسيطر على حركات الجسم ، وتقاوم شهواتها وغضبها ومخاوفها . فهي حقيقة «فكر مدبر» . وأخيراً ، فإنها لا تحل البدن إلا ونهيه الحياة . فإذا ما غاصت فى سيال الصيرورة بدت غريبة عنه بطبيعتها . إذ لما كانت من فصيلة الماهيات اللامتغيرة كانت ماهيتها ترجع إلى ماهية الحياة نفسها وتحملها معها . ومن

الممكن أن يصل الموت إلى ما يحيط بها أعنى إلى الجسم الذى وهبته قوتها الحيوية إلى حد ما ، ولكن النفس وهى نواة ماهية الحياة لا تذوق الموت .

٦ — التجلى الروحى

لعل تشابه النفس بالحقائق المعقولة أن يكون الدليل القوى على خلودها بل لعلنا نصيب الحقيقة إن قلنا أنه الدليل الكافى والوحيد على خلودها . وهذا التشابه أيضا هو الذى يزيل ما يمتري الادعاءات والاتجاهات الصوفية السابقة من اضطراب كبير أو قليل ويطبعمها بطابع روحى .

لقد سخر هرقليطس من أتباع باخوس ومن أصحاب الطرق الآخرين الذين عاشوا فى عصره كما سخر من تطهرهم من شوائب المادة . ويشكوا أغلوقون ، فى الكتاب الثانى من الجمهورية ، مر الشكوى من الطرائق والمذاهب التى تشوه فكرة العدالة التى تسلب الديانة كل نزعة أخلاقية وتحملها إلى تجارة وسحر . ولم يكن أقل ازدراء لهؤلاء القسيسين الجاثلين الذين يتنقلون من باب إلى آخر يبيعون صكوك الغفران أو الرقى السحرية حسب الحاجة ، والذين يدعون تخليص الأموات والأحياء من خطاياهم بمجرد هذه الطلسم . ولقد بذل أفلاطون جهداً محسوساً فى تجديد محتويات هذا التطهير الذى سارت وراءه الأسرار والشيع فى لهفة شديدة والذى شوهته هذه تشويها شديداً فى نفس الآن . وكان هذا التطهير لدى أفلاطون تعذيباً للتكفير عن الخطايا متقبلاً فى ارتياح ، وعوداً إرادياً إلى العدالة وفراراً من العالم وشوقاً إلى الموت وتشبها بالآله . لقد

قيل في كثير من الأحيان أن فلسفته تصوف في بعض نواحيها والأجدى أن يقال ، ما أراده هو وما ذكره بنفسه أن التصوف قد صار فلسفة في مذهبه .

ربطت فكرة العدالة هذا التصوف ربطا قويا بتجارب أفلاطون المضيئة وبما كان يشغله من مسائل سياسية . فأشدد المجرمين خطراً وأكثر الناس استحقاقاً للتعذيب هم الحاكون بأمرهم والطفاة كما يرد ذلك على الدوام في جورجياس وفيدون والجمهورية وكما يرد بعد ذلك في تيمائوس . وقد كان القول بالواحد الضروري هو النتيجة التي لم تتغير تقريباً والتي انتهت إليها كل هذه التصورات للعالم الآخر فسقراط يبحث خاليقليس على انتظار الحكم الوحيد ذي القيمة ويعلم أغلوقون ضرورة إهمال جميع العلوم الأخرى من أجل تحصيل ذلك العلم الذي يهيئنا لأن نحسن اختيار ما ينتظرنا من مصير . وسواء قضينا الحياة فوق قمم السلطان الخطرة أو قضيناها في الظلام فإن الحياة الأرضية ليس لها إذن من اعتبار إلا أن تنير لنا الحياة المستقبلية - فهي برهان وتجربة في وقت واحد .

تجربة للموت ، ويقول سقراط « التفلسف هو التهيؤ للموت » فالجسم في الواقع ليس إلا ظلمة كثيفة تحجب عنا الحقائق المعقولة . وثمة أساس عقلي للأقاصيص المفرقة في الخيال التي تتناول سقوط النفوس ، وهو أننا نحن الذين نربط أنفسنا بالبدن وهذا هو التعلق الشديد برغبات البدن وملأذه والخضوع لأوامره . والواقع أن النفوس التي يتخيلها الشعبيون هائمة متوجمة حول المقابر

هى التى نمشت البدن وظلت متعلقة به تعلقاً شديداً : وما التجسد إلا عقوبة ونتيجة طبيعية للشهوات الحسية .

إن مجاهدة الجسم والعزوف عن الدنيا ليسا قعوداً فى تواف عن الجهد الأخلاقى . « فالقرار من العالم » كما نخبرنا سقراط فى صيغة ابتدائية هو « التشبه قدر المستطاع بالآله » ولكننا نجد لدى صريدى الأسرار المختلفة طرقاً متعددة للتشبه بآلهتهم - فإن لم يصلوا فى كل الأحيان إلى حد الشذوذ الأخلاقى الذى يسمهم به آباء الكنيسة فإنهم يستمسكون عادة بأباطيل ساذجة شنيعة . « أما التشبه بالآلهة » ، كما يعرفه سقراط فيما بعد ذلك بقليل ، « فهو أن تصير عادلاً تقياً أمام نفسك » وتوجد هذه التعريفات فى محاوره تيتاوس ، التى ألفت إما قبل رحلة صقلية أو بعدها بقليل . ومع ذلك فإننا نرى أن جزءاً كبيراً من محاوره فيدون وبعض صفحات الجمهورية ليست إلا شروحاتاً عليها . والمحاور الأخيرة وهى محاوره القوانين تعيد ذكر هذه التعريفات فى وضوح . وتبدل فيدون من دلالة الكلمة المشهورة « كثيرون أولئك الذين يحملون تيرس » عصابة باخوس « قليلون هم أتباع باخوس » فتذكر لنا المحاوره أن أتباع باخوس هم الفلاسفة . وهم دون غيرهم الذين يزاولون التطهر بمعناه الصحيح . أن أنفسهم تدبر عن كل رغبة أو فكرة أرضية ، ولا يغذيها إلا صرعاً قدسياً هو الحقيقة المعقولة فإن حضر الموت « رحات تواء إلى قرينها وشبيهها ، ومادامت قد تقوّمت بجوهر قدسى ، فكيف يمكن أن نخشى الانحلال والهلاك ؟ ... » .

العلم الإنساني

١ - الإحساس والفكر

يقع التذكر بين الرؤيتين السعديتين وبيعه الإحساس والحب الذي يرقى بالتدريج حتى يصل إلى أعلى درجات القداسة .

إن ثمة ميل وعجز في آن واحد في الموضوعات التي توقفنا عليها التجربة اليومية . فقطعتان من الخشب تبدوان متساويتان لأول وهلة . ولعلهما أن تكونا كذلك بالنسبة إلى قياس غير محكم ولكنهما ليستا كذلك على الإطلاق في الحقيقة العلمية . ويقول أفلاطون : إنهما ترغبان في ذلك وتتوقان إليه ، ولكنهما لن تدركاه ، ففكرة المساواة الصحيحة التي يوحى بها إلينا بمجهودها تستخدم في قياس عجزهما كذلك . ويمارض بروتاغوراس المهندسين في وجود مماس في الطبيعة يعماس الدائرة في نقطة واحدة بالذات . وإنه لعل حق ، إذ لا توجد في الطبيعة دائرة ولا توجد كذلك زاوية قائمة تماماً .

وإن أفلاطون نفسه ليسخر في رفق من لغة الرياضيين الذين يتمسكون بها رغماً عنهم . فهم يتحدثون عن التربيع والامتداد أو عن القسمة والرفع والخفض ، كما لو كان استدلالهم يعتمد حقيقة على الشكل الذي يرسمونه تأييداً لهذا الاستدلال . ومع ذلك فهم يعلمون علم اليقين أن هذا الشكل يكون ناقصاً

وباطلاً على الدوام . وقد أوقفهم التجربة على شيء هو « محاولة » لأن يكون دائرة . فهم يرسمون بدورهم أو بالأحرى يؤلفون ، باستخدام كل دقة في الميكانيكا العلمية ، شيئاً يصحح ويقضى في حدود المستطاع على ذلك التقريب الذى يوجد في الطبيعة . ولكنهم لا يقولون ولا يمتقدون مطلقاً أن هذا الشيء الملاحظ ، أو المرسوم ، أو المؤلف هو دائرة كاملة من جميع الوجوه وأن له كل خصائص الدائرة . فليس للدائرة وجود إلا في تفكيرهم باعتبارها شيئاً متطلباً . ويقول أفلاطون أنها وجدت في تفكيرهم على الدوام ولكن على هيئة فكرة كامنة . فالإحساس الذى يوحى بفكرة ما لا يخلقها إنما يوقظها في النفس فقط . وهذا الإيقاظ هو التذكر .

حفظ هذا الإيجاء ، والشعور بما يتضمنه من نداء ، والإذعان له بالتدرج من المعنى الموحى إلى الماهية السرمدية الكاملة الذى هو نسخة منها ، ذلك ما يفعله « الجدل » . ويصور الكتاب السابع من الجمهورية هذا التصاعد المنهجي من المحسوس إلى المعقول أعنى إلى الفكرة أو المثال .

٢ - الكهف

أخذ أفلاطون يستعيد ذكريات الصبي . فكان مسرح الصور المتحركة من أكثر المناظر فتنة له في هذا العهد ، حيث تضطرب وتثرثر لعب لطيفة على حاجز يخفى وراءه من يمارس تحريكها ؛ فيأخذ الطفل الذى لا يرى العامل أو الخيوط ، في متابعة هذا الخداع في شوق زائد . كانت هذه اللعب ورغائها

وتشاحنها وانفعلها في شدة أولين والحوادث الغريبة التي تتخلل حياتها القصيرة بالنسبة إلى أفلاطون خلال ساعة أو ساعتين هي العالم الواقعي . لتخيّل أن ناراً أوقدت خلف العامل وخاف اللب وطُلب من النظارة أن يحملوا ظهورهم إلى الحاجز ثم أسدل ستار يشخصون إليه . بذلك نحصل على صور متحركة في شكل ظلال تسقط على الستار . هذا ، وقد استخرج أفلاطون من هذه المناظر المتواضعة رمزاً له دلالة عظيمة .

لنتمثل أناساً مسجونين في كهف لا يسمح إلا النظر إلى داخل هذا السجن لأن رقبتهم وسوقهم قد كبتت بسلاسل ثقيلة ، وقد أداروا ظهورهم للضوء الذي ينسل خالصاً إلى الداخل عن طريق الجزء الأعلى من فتحة متسعة يقوم من خلفها جدار يرتفع حتى يحجب منتصف الفتحة « ويشبه هذا الجدار الحواجز التي يضعها عمال الصور المتحركة بينهم وبين النظارة » ويوجد طريق من خلف هذا الجدار يصعد إلى أعلى حيث يذهب أناس ويجيئون يتحداثون فيما بينهم أغلب الأحيان ويحملون على أكتافهم تماثيل صغيرة بحيث تبرز التماثيل وحدها من فوق الجدار . وهناك وعلى بُعد قليل خلف الطريق أوقدت نار أضاءت التماثيل وألقت بظلالها إلى قاع الكهف . فان يبصر المساجين بطبيعة الحال إلا هذه الأشباح ولن يترامى إلى أسماعهم إلا أصداء هذه الأصوات . ولما كانوا قد أوثقوا بالسلاسل منذ طفولتهم ولم يروا قط غير هذا المنظر فإنهم يعتقدون أن هذه الأشباح هي التي تتحدث وهي التي تحيا ، هي بالنسبة إليهم العالم وحقايقه ووعوده وملأذه ومتاعبه .

فإذا أطلقنا أحد هؤلاء المساجين وأرغمناه على الوقوف وعلى أن يدير رأسه وأن يتطلع إلى الضوء المنبعث من النار أو أن يشاهد التماثيل التي تمر أعلى الجدار . حينئذ وقد انبهرت عيناه فسوف يعتقد أنه لا يرى إلا أشباحاً تتراقص ويود لو عاد إلى رؤاه داخل الكهف ليحصل على الحقائق من جديد . لننتزعه من الكهف الذي يعيش فيه ، ولنجذبه على الصراط حتى يصل إلى ضوء النهار التام ، ولن دفعه إلى أن يشخص بعينه نحو الشمس . سيتحسر ويرأر من الغيظ ، لقد آذته الصدمة إيذاءً عميقاً ، فلم يتمكن من أن يميز شيئاً على الإطلاق مما نسميه موجودات وكائنات .

إنه في حاجة إلى تعلم تدريجي لكي يستعيد النظر إلى الحقيقة والإحساس بها . فنبداً بمواجهته بأشباح الأناس وأشباح الأشياء الأخرى ثم نواجهه بصورها منعكسة على سطح الماء أو على مرايا ثم نواجهه أخيراً بالكائنات أنفسها . ثم نجعله يألف في رفق ضوء القمر ولألاء النجوم ، ولن نجعله يشخص إلى الشمس عينها ، هنالك حيث توجد وبالكيف الذي عليه توجد . سيدرك آنئذ أن الشمس تحدث الفصول والأعوام وأنها تهيمن على كل شيء في عالم الشهادة بل وأنها العلة الأخيرة لتلك المناظر التي كانت تتراحم بداخل الكهف .

اعجب بحكمة الآن على قيمة هذه الأشباح التي تسكن باطن الأرض - كانت فيما مضى حقائق لها قيمتها . كان اقتناصها في سرعة أثناء عبورها وتذكر زمانها ومكانها والنظام الذي اعتادت أن تظهر عليه ومن ثم القدرة على التنبؤ بالوقت

الذى ستظهر فيه من جديد - كان هذا هو العلم . فما أكثر بطلان هذا العلم وبطلان كل مفخرة تصدر عنه ! لينزل مرة أخرى إلى الكهف وليعد إلى مقامه من الأصفاد ثم ليتطلع . سوف يعجز أول الأمر عن تمييز شيء ما في هذه الظلمات . ولكنه سيتعرف عليها ثانياً بمرور الزمن ، وسيعرف هذه المرة أنها أشباح . أى سخرية وأى ضحكات عالية تلك التى يستقبله بها العبيد من رفاقه إن حاول أن يشرح لهم حالهم ! ألم يفقد بصره فى الخارج ؟ .. ليعتمد عن كل محاولة من شأنها أن ترجمهم إلى الصواب أو تخلصهم من الذل أو تعيدهم إلى النور وإلى الحقيقة ، فقد يمسكوا به إن تمكنوا ويزهقوا روحه .

نعم من التصوير إلى الواقع . فالكهف الذى فى باطن الأرض هو عالمنا المحسوس ، والنار التى تلتق بالأشباح هى الشمس التى تضيء لنا . والصعود إلى الخارج هو ترقى النفس نحو العالم المعقول حيث تضيء الشمس الحقيقية ، مثال الخير . ولن يمكننا تحمل لعانها قبل أن ندعم النظر العقلى بدراسة منهجية فإن وصلت أخيراً إلى تأملها وإلى تحديد صفحتها المتوهجة بمد لآى حينئذ نقدر أنها علة كل خير وكل جمال . لا ينبعث الضوء وأشعته القوية فى عالم الشهادة هذا إلا عنها . وانها المخلوق الحقيقة والعقل الذى يتأملها معا فى العالم المعقول . وإن يُرَجَّ نفعٌ من شيء فى الحياة العامة أو الخاصة ، وإن يكون أمر ما سديداً إذا لم يحصل تحت ضوئها .

فليس ثمة من داع إذن للدهشة بمد أن نرى هؤلاء الذين تأملوها مرة قد تملكهم الحيرة والذهول . فهم يتوقون إليها وإن تكاثرت عليهم المشاغل

فلا يشاركون في هذا العالم إلا كرهاً وازوراراً . أرأيت إليهم كيف يشيرون
الهزو والشفقة في نفس الآن حينما يضطرون أمام المحكمة إلى مهاجمة تلك
الأشباح التي يسميها الناس أشياء ووقائع ! ولكن لنذكر على الدوام أن ثمة
صنفين من العميان : أولئك الذين عاشوا في الظلام وفي الليل فيمشو الضوء
أبصارهم ، وأولئك الذين ألفوا نور الحقيقة فيتحسسون طريقهم في الظلام .

٣ — مهمة العلوم الرياضية

يحتفظ الناس عادة بفكرة خاطئة تماماً عن التعليم . فيتوهمون أنه عبارة
عن إدراج علم تام التجهز في النفس الجاهلة كما لو أمكن أن توهب الأعين
الكليلة الإبصار . ولكن التعليم لا يخلق آلة التعلم وكل ما يفعله هو تخليصها
من الشوائب وتوجيهها . على أن النظر الروحي لا يمكن أن يوجه دون توجيه
كل قوى النفس ، إذ لا بد وأن تتجه النفس بكليتها نحو الحقيقة .

ولكن النفس تدرك في الأشياء تجانساً مضطرباً متقطعاً وتوافقاً جزئياً
يفزعها ما فيه من شذوذ . ولعل الاستجابة لتلك الدعوات القدسية وانتظام
عقدها في أنشودة تأخذ أبياتها في الاتساع رويداً رويداً حتى تبلغ بنا أقصى
حد من التوافق السرمدي ، ان يكون في العلوم الرياضية . والواقع أن أفلاطون
يعتبرها التمهيد الذي لا يحصى عنه في دراسة الحقائق المعقولة .

ليس ثمة من شيء لا تدلنا الحواس على أنه كبير وصغير ، واحد و متعدد ،
بسيط ومنقسم إلى مالا نهاية ، تبعاً للأحوال والمناسبات . ولكن مثل هذه

التناقضات تنبه الذهن ، فيرتفع حينئذ إلى تعريف يتجاوزها ويسمو عليها
فيتصور الوحدة المجردة وسلسلة الأعداد ، وهكذا تفتتح أمامه المشاكل الحسابية
التي لا تنتهى . ويتصور العظم المجرد فضلا عن الخطوط والسطوح المنظورة
ويتخيل التأليفات الهندسية المثالية . كانت هذه العلوم قد تقدمت هناك تقدماً
كبيراً في اللحظة التي أسس فيها أفلاطون الأكاديمية ، ولا يمكن أن نشك
في أنه حينما عاد من زيارة ارخيتاس لم يكن قد مال بعد إلى أن يجعل للعلوم
الرياضية جزءاً مهماً من منهج الدراسة . هذا ، إلى أن « مدرسته » كانت
تحدوها روح حرية الفكر . وكل ما كان يدرسه أفلاطون هو إرشاد وتوجيه
عام . وبذكر لنا بنفسه إنه لكي نعمل على تقدم أعمال المتخصصين وعلى التوفيق
بينها لابد من وجود ملاحظة شاملة غير متحاملة ونظرة تعرف إدراك الأجزاء
في مجموعها ، أى عين إجمالية .

كان لأفلاطون هذه العين الإجمالية وذلك الحب الجامع . فشكى مر
الشكوى من قصور الدول عن تشجيع أبحاث العلماء وتوجيهها . فإذ كبر
التقدم الذي يستطيع الإنسان الظفر به بوساطة تلك المجهودات المنسقة على
هذا النحو لأن هذه الدراسات مهما يكن من أمر احتقارها وعرقلتها فإنها مع
ذلك تأمر أصحاب القلوب ، وإطالما تقدم بها هؤلاء ! ألم يكن يوجد علم دقيق
حتى بات سقراط المحاورات يشكو من عدم تأليفه بعد ، وماذا يكون هذا العلم
على وجه الدقة ، في اللحظة التي حرر فيها أفلاطون الكتاب السابع من
الجمهورية ؟ .. كان قد فرغ في تلك اللحظة من اكتشاف هذا العلم « أستاذ »

شاب من أساتذة الأكاڤمية هو تيتاوس ، أفضل تلاميذ تيودوروس من سرينيا .
 سار تيتاوس باكتشافات أستاذه القديم فيما يختص بالكميات اللامتناهية
 شوطا بعيداً في سبيل التقدم ، وتمكن من إعادة الحلقة المفقودة بين الهندسة
 أو علم السطوح وبين الفلك أو علم الأجرام المتحركة وهذه الرابطة هي
 الاستريومتري أو علم الحجم .

فإذا أضفنا إلى هذه العلوم الأربعة ، الحساب والهندسة وعلم الحجم
 والفلك والموسيقى المنتظمة أو علم التوافق حصلنا على سلسلة من التعاليم العلمية
 كما كانت تدرس في الأكاڤمية . وقد رغب أفلاطون في شوق في أن ينهض
 بالعلوم الرياضية . ونعلم علم اليقين أنه ساعد بوجه أخص في وضع المشاكل
 وفي اكتشاف المناهج العلمية . وقد تخرج في هذه الجامعة الأولى بعد تيتاوس
 المخترعون أو أصحاب العلوم الدارجة أمثال : ليون وإيدوكس ومنيخم وغيرهم
 كثيرون ، وسبق ليون ، اقليدس الشهير ، في تحرير رسالة « العناصر »
 بل ونجد في رسائل اقليدس نفسها أن الكتاب الخامس من تأليف إيدوكس
 والعاشر من تأليف تيتاوس . وظل أثر أفلاطون ملموساً حتى عهد ازدهار
 الرياضيين الاسكندرانيين في القرن الثالث للميلاد .

أما الرياضيات فلا تؤدي بنا رغم هذا إلا إلى عتبة المعقول . وإن كان
 موضوعها هو الماهيات اللامادية إلا أنها مضطرة على الدوام إلى تأييد موضوعها
 بأشكال محسوسة . وهي تبدأ من مبادئ تسميها تعاريف أو بديهيات أو
 مسلمات ولكنها في حكم أفلاطون تسلم في الواقع بكل شيء لأنها لا تتمهل

حتى تستخرجها من مبادئ أشمل وأعم . وتدرج « العلوم الرياضية » عن طريق هذه الفروض الابتدائية من مقدمة إلى مايلزم عنها حتى تنتهي إلى نتائج تزايد في التعقيد .

وبدلاً من أن يتوقف الفيلسوف عند هذه الدرجة الوسطى يتخذ منها معيناً يتأدى به إلى مراحل أخرى ، فيرقى من هذه المبادئ التي تسلم بها الرياضة في يسر ، إلى الماهيات العقلية الخالصة عن طريق الفكر المحض ودون استخدام أى شكل من الأشكال . وأخيراً يتأدى درجة درجة إلى المبدأ الذي صدرت عنه والذي هو مصدر لنفسه : أعنى مثال الخير . وهكذا ، يتأمل شمس كون المعقولات كما تأمل السجين المتخلص من الكهف شمس الكون . فيدرك أن مثال الخير هو مصدر النور والوجود معاً لكل الحقائق في هذا العالم . ولا تصدر عن هذه النار السامية العلوم بأجمعها فحسب بل تصدر عنها كذلك كل الماهيات الروحية ولما كانت هذه النار هي الحاصل الضوئى لكل حقيقة فهي إذن « تفوق كل حقيقة أخرى وكل نور آخر قدرة وفضلاً » .

٤ — الحب الفلسفى

إن الذى يعين النفس على هذا التصاعد الطويل هو ما يطلق عليه المحدثون اسم الروح العلمية أحياناً واسم الروح الصوفية فى أحيان أخرى : شيئان بذلوا قصارى جهدهم فى التميز بينهما وفى مقابلة الواحد منهما بالآخر ووحد بينهما أفلاطون تحت اسم جذاب هو « الحب » .

قدم الحب الأفلاطوني مبحثاً سهلاً غير أنه كان متنوعاً أيضاً ، للقصاصين الذين يستغلون مافي باطن التاريخ العام من إيهام. ومما يؤخذ عليه النقد الدقيق في أيامنا هذى « ذلك المشق الحوشى الأحمق ، الذى لا يزال البعض راغبين في نسبته إلى نابغة الشعر في الحب الفلسفى » . على أن تصريحات أفلاطون السديدة قد قضت سلفاً على هذه الادعاءات في مواطن متعددة من محاوراته . فشخصية سقراط في هذه المحاورات تظهر أمام الشباب بمظهر من يجد في طلب الحب ولكن الجمال الذى يريد أن يعرفه وأن يعرفه للآخرين هو جمال النفوس . وليبرهن أفلاطون على ذلك أمام عالم منحل ؛ وصل إلى حد أن اتخذ من القبيادس وهو أعظم مثل للانحلال دليلاً قاطعاً على صدق قوله . كان القبيادس ثملاً إلى الحد الذى سمح له بأن ينسكث كل عهد وكان بارعا في غبائه إلى الحد الذى سمح له أن يصور لنا وراء مظهر سيلين قلب سقراط الحار الصريح ، قاب سقراط الحقيقى . وتستنكر محاورة الجمهورية بنفس الصراحة التى تستنكر بها محاورة القوانين ذلك الحب الشاذ فضلاً عن أن أكثر صفحات فدرس حماساً لانفتاح تذكر الصداقة القلبية والصداقة الروحية . فلئن كان الجانب الفلسفى لم يطغ على الجانب التشريعى في أفلاطون فإن الجانب الشعرى لم يطغ على الجانب الفلسفى فيه ، نعم ان أجنحة ملكة شعرة قد مست قدارة العصر مساً رفيقاً غير أنها لم تملوث بها .

ثمة جدل للجمال كذلك الذى يخص الخير . دعى سقراط وارستوفان وبوزانياس وسراميس وفدرس ومرهينوس واريكسيما كس الطبيب في ليلة

من ألبالى عام ٤١٦ لتناول العشاء لدى الشاعر اغاثون احتفالاً بفوزه في مسابقة التراجيدى . وقد تأخر سقراط ، الذى كان قد توقف فى الطريق غارقاً فى أفكاره وكانت المأدبة قد بدأت منذ وقت طويل حينما حضر سقراط . ثم انتهى العشاء ورتلت الأناشيد فى تمجيد الآلهة وبدأت المأدبة بمعناها الصحيح . ولم يكن لهؤلاء المفكرين شأن بلاعبات الناي . فطردن ثم طلب إلى كل مدعو أن يؤدي جزيته إشادة بالحب . فكان هذا بالنسبة إلى أفلاطون ، وهو سيد المقلدين ، ظرفاً مناسباً لأن يكتب قطعة رائعة «على طريقة كل مؤلف» فكل مقال كان تقليداً لأظهر مميزاتهم . أما تقليد أرسطوفان الذى حرّف الكوميديات القديمة فى قصصه عن نشأة الأجناس ، فكان بوجه خاص قطعة بلغت أعلى درجات السخرية صيغت فى نثر اتيكى بسيط عذب . ثم يأتى دور سقراط ، فى محاوره قصيرة مع اغاثون ، حيث يبدأ بتصحيح المديح المفرط الذى كاله الخطباء الأولون للحب .

لن يكون الحب شيئاً جميلاً ولن يكون شيئاً مثيراً مادام جوهره هو النزوع . وهذا النزوع الصرف يُدشعر بالموز كما يشعر بالخلو . ويختلف الحب عن أن يكون إلهاً عظيماً بل لا يصل إلى حد أن يكون مجرد إله . فإذا عسى أن يكون إذن ؟ .. إن فى مقدور سقراط أن يجيب على هذا السؤال لأنه تتلمذ أخيراً على إحدى كهنة ماتينييه هى الحكيمة ديوتى . ليس الحب شيئاً خالداً أو شيئاً فانياً إنما هو جنى متوسط المسكنة بين الآلهة والإنسان . هو ابن لبوروس ملك الثراء وبينيا ملكة الموز . ورث مظهر المبتئس وحياة البائس عن أمه وأخذ

عن أبيه الجرأة المتسلطة . ليس الحب علماً ولا جاهلاً بل هو مجرد باحث عن العلم : هو فيلسوف . هو القلق التام والرغبة من كل قلب إنسانى نحو الخير الأسمى . فالكاثن الفانى الذى فىنا يريد أن يحصل على الخير أبداً الآبدى . فهو يحلم بالخلود ، ولكنه لن يتمكن من أن يصل إليه فى هذا العالم الدنى . اللهم إلا أن يستعفى عن نفسه بشىء آخر ذلك بأن يفصل ذرية من لحمه أو من روحه مستعيناً بالحب والجمال .

أعجب سقراط فى شدة بأحاديث ديوتى هذه ، ولكنها قالت : « ليست هذه ، أى سقراط ، إلا أسرار الحب الأولى وستجد فيها ، إن شاء الله ، المدخل فى يسر . إذ لا تزيد عن أن تكون دهليزاً ، أما عن محراب المريد فىلست موقنة بعد إن كان فى مقدورك أن تنفذ إليه ، وإنى محاولة على هذا أن ألق مملك ذلك الباب » .

ثم أخذت ديوتى تلقن سقراط المراتب المختلفة لهذا المطلب السامى . فأول رتبة من مراتبه هى حب جسم جميل ، وهو حب ذهب صرف هنا كما هى الحال فى الجمهورية ، لأنه « يولد أفكاراً جميلة » من الكاثن الذى اختاره . إلا أن الحب لا يزال فى هذه الرتبة مكبوتاً محدوداً . فيدرك حينما يعظم أن جمال الأجسام المتنوع ليس إلا صورة لجمال واحد بالذات . فيحب كل شىء ويتخلص من عبودية الواحد الفرد الذى يعوق نهوضه . ولكن شتان بين هذا الجمال الجسمى وبين جمال الروح ! سيصل العاشق الحقيقى خلال مقامات بدائية إلى

تأمل روح جميلة والفناء فيها ونثر الكلم الطيب تمجيداً لها ثم يرتقى من حب النفوس إلى حب الأعمال وحب القوانين . ثم يقابل ما هو أعلى من الحياة العملية نفسها ألا وهو العلوم . وبارتقائه من واحدة إلى أخرى ينس الاسترقاق الذى قصره على جسم واحد أو نفس واحدة أو عمل واحد . ومن تلك القمة التى وصل إليها عن طريق هذا التصاعد يرسل ببصره إلى محيط الجلال بأجمعه . ويبقى فى هذا التأمل مدة طويلة ، يتغذى منه « لينشىء فلسفة متسمة الأفق فى أفكارها وكلماتها » وهكذا تقوى نظارته ، بعد أن دُعِمت على هذا النحو ، على تحمل ومضة الكشف الأخير .

أما ما يدركه فى هذا التنوير الفجائى فهو الجلال الواحد الأسمى . سرمدى لم يحدث ولن يفنى لا يقبل التجبر ولا الذبول . لا تغير الهيئة التى يبدو عليها ولا اللحظة التى يظهر فيها من جماله ولا يتشكل تبعاً لعمر أو لمزاج الذات التى تتأمله . ليس وجهاً صبوخاً ولا أيداً رخصة وليس كلاماً ولا علماً . ليس جمال شئ ما أو جمال كائن حى وليس جمال الأرض أو جمال السماء . ليس إلا جمال نفسه ، هو جمال فى ذاته موجود على الدوام متشابه أبداً . ليست أنواع الجمال الأخرى بالنظر إليه إلا ومضات عابرة لا يضيف ظهورها أو خبورها شيئاً إلى بهائه السرمدى ولا ينتقص منه شيئاً ولا يُغير فيه شيئاً . جمال بسيط صاف خال من الشوائب ليس فيه شئ جسدى أو إنسانى أو شئ يغرى عيني الجسم أو يُرغِب فى لغو تلك الشهوات الفانية ، جمال إلهى يرتشف من يتأمله من الفضيلة الحقة لا من شبح الفضيلة . فيصبح خليلاً للإله وينفذ إلى الخلود رغم كونه فانٍ .

٥ - تعقب الحقيقة

ليس الجمال والخير سوى مظهران من مظاهر الوجود كالحق والعدل وكالواحد والمتغير ، رغم المكانة العالية التي تضمهما فيها محاوره الجمهورية ومحاوره المأدبة ومحاوره فدرس . ولا يتوانى أفلاطون في أن يذكر لنا أن موضوعات الرغبة الإنسانية الأبدية هذه ليست هي الكيفيات العابرة للأشياء التي تحدث وتزول ، كما أنها ليست التجريدات التي تقوم بها نفوسنا أو التأليفات التي تكونها ولكنها حقيقة عميقة ، واحدة بالذات ، باقية على الدوام ، هي كمال تام متحقق . أما الحد الأقصى للتصاعد الأفلاطوني فهو الوجود أو الإله . ولم يكن تفكير أفلاطون في وقت ما اجتماعياً خالصاً أو علمياً بحثاً أو دينياً صرفاً . فنفس المثال ، الواقعي والعالي في وقت واحد ، يتخذ معياراً للحياة الفردية ونموذجاً للمدينة المثلى وموضوعاً للمعرفة وللحب . والأفلاطونية في جميع مناحيها وإن بدت منطقية تماماً ، ليست سوى حب ورغبة وشوق متصل نحو الحقيقة الكلية .

تلك الحقيقة الكلية ، إلهية قصية البعد ولكنها مبتغاة إلى غير نهاية ولا يأل المرء جهداً في الاقتراب منها . وكذلك كان تفكير أفلاطون ملتجئاً منهجياً في آن واحد .

لم يكتب هذا التفكير باستعارة المشاهدات والوقائع من الأطباء بل أخذ عنهم بوجه خاص روح الإحاطة والتأني . ولقد طرائقهم وتستر خلف اسمهم

وُمثّلهم لتأييد مناهجه النقدية الخاصة . ويستعين سقراط في محاوره فدرس بهيوقراط ، أستاذ مدرسة كوس من أجل تبين أهمية التحليل والتركيب . إنه يتمشق هذه المناهج . فهو يشير قبل ديكارت إلى أن السر الأعظم لكل بحث هو تقسيم الموضوع المركب إلى عناصره البسيطة وأن نتأدى بالتدريج من أبسط المسائل إلى أكثرها تعقداً . ولم يكن أقل تمسكاً للتصنيفات على النحو الذي اتبعته علوم الطبيعة . وثمة محاورتان من محاورات المجموعة المتأخرة هم السوفسطائي والسيامي مملوءتان بهذه التصنيفات . كان الزوار يترددون من حين إلى آخر على الأكاديمية . والممثلون الهزليون يعرضون لنا في أحد أيام عيد الباناتينية التلاميذ وهم منهمكون في مناقشة خطيرة كان موضوعها تحديد وتصنيف شيء كان يتأمله الكل بشغف : وهذا الشيء هو ليمونة ! وإلى جوار أفلاطون كان طبيب من صقلية يستمع وينقد .

لا يفتن هذا التفكير المدقّق بأن يرجع على نفسه في كل لحظة ليراقب نفسه وليحقق منهجه وليصحح من خطئه . فعلى الرغم من وثوقه من مواقفه أو بالأحرى من مطالبة الأساسية ، كان يتقبل الاعتراضات أيّاً كان مصدرها بل كان يتخيلها بنفسه حين تدعو الحاجة . ويعرض أفلاطون في محاورته بارمنيدس الصعوبات التي تثيرها نظريته في الحقائق المعقولة أعنى الصور الخالصة أو المثل . ويذكر ذلك في صورة من عدم التحيز وبدرجة من الوضوح يبدو معها أن نقد أرسطو لم يأت بمجديد في هذا الباب .

العلم الإجمالى لدى أفلاطون مثل أعلى . والبحث العلمى فى رأيه هو عمل
لا نهائى فكل اكتشاف يضع إشكالاً جديداً . وكان إيمانه بإمكانية العلم
إيماناً مطلقاً . إذ يصرّح فى محاوره مينون بأن الشك من عمل النفوس الكسولة
فضلاً عن أن إحدى الميزات العظيمة لنظريته فى التذكر هى أنها تخلق الباحثين .
ولما كان هو سيد الباحثين ، فهو أستاذهم إذن فى المبادئ التى لم يهيئها لهم ،
بفضل روح منهجه وحب استطلاعهم الحر على الدوام . وهو أستاذهم فى ميدانه
الخاص بفضل إيمانه بالرؤيا النهائية وبفضل حرارة شوقه وبفضل اجتهاده فى
المحافظة على توجيه كل قوى نفسه نحو الحق على الدوام .

المدينة الفاضلة

١ - في الاعتزال وفي العمل

تجرى حوالى عشرون سنة بين موت سقراط ورحلة أفلاطون الثانية إلى صقلية . شاهد أفلاطون خلال تلك الحقبة استمرار المارك الفظيعة بين الإخوة اليونانيين حين حاولت أثينا وحليفاتها أن تحافظ على سقوط اسبرطة ، ولكن اسبرطة استعادت السيطرة من جديد ، فتآمرت أثينا وطيبة ضد صولها العنيفة ، ثم ابتمدت أثينا عن طيبة التي اشتد ساعدها ، وتحالفت أثينا واسبرطة ضد سطوة طيبة . وغدت بلاد الفرس هذه النار وحاولت التحرر شيئاً فشيئاً .

فساعدت اسبرطة على سحق أثينا . ولما كسر جناح أثينا حاولت اسبرطة استعادة ما تخلت عنه في آسيا من قبل . وأخذت منذ عام ٤٠١ في مساعدة فيروس الأصغر ضد أخيه أرتاكسيركس ، وأبدت في السفين التالية يوناني آسيا الصغرى ضد وإليهم الفارسي ترافرن . ولكن أسطولها ضرب في عام ٣٩٤ ضربة قاضية تلقاها من الأسطول الفارسي عند كنيدا ، وكان يتولى قيادته أمير البحر الأثيني كونون الذي أخذ أخيراً بثأر النكبة التي أزيلت في إيجوسبوتاموا . ثم تحالفت أثينا مع طيبة وكورنثوس وأرجوس لتمكن من

زعزعة سلطة اسبرطة الصلبة . وأفادت من مساعدة الفرس في إقامة جدرها الضخمة ، وجدر كونون أسطولها البحري وأعاد إليها ترازيبولوس السيطرة على البوسفور . ولم تتوقف اسبرطة في هزيمتها عن حيك الدسائس من حول أرتا كسيركس وعن التوعد بإقامة امبراطورية أثينية جديدة . ونجح أخيراً أنتالكيدياس ملكها عام ٣٨٦ في الحصول على معاهدة تعيد إلى الفرس سيطرتهم على يوناني آسيا وتعيد « الاستقلال الذاتي » لكل المدن اليونانية . وكان في هذا ، القضاء البرم على كل محالة للتحالف . وهكذا ظلت اسبرطة سيدة كما كانت .

أدرك ذلك حلفاؤها غير المتحمسين لها كما أدركه أعداؤها . فقد حطمت أسوار مدينة مانتينه وانتشر سكانها في خمسة قرى كبيرة . واحتلت قلعة طيبة غدراً وخيانة دون قتال فاضطرت طيبة إلى أن تنحاز إلى الحلف الاسبرطى . أما أولنتوس التي ارتبطت بمعاهدة حاسمة جداً في خلق دونيا فقد استولى عليها عام ٣٦٩ بمد قتال ثلاث سنوات ومن ثم تلاشت المعاهدة . ولما خلصت طيبة بفضل تحزب مواطنيها ، انحازت أثينا التي كانت قد نجت من ضربة اسبرطية إلى جانب الطيبين وعملت على إعادة عقد اتفاق بحري لصالحها الخاص . ولكنها رأت أن طيبة تنال سبق في سرعة فعقدت الصلح مع اسبرطة خوفاً من تلك القوة المتزايدة . وفي اللحظة التي كادت تنهار فيها قوة اسبرطة ، حين هزمها أبامينندس عند لوقررس عام ٣٧١ وحين غُزيت في عقر دارها ، صممت أثينا على شد أزرها فأرسلت جيشاً بقيادة أبيقراط إلى برزخ كورنتوس وتحالفت

معها تحالفاً عملياً ضد طيبة في ربيع عام ٣٦٩ . ثم غزا أبامينداس البليونيتر مرة أخرى . ورغب حاكم بلدة بريجة الفارسي ودينس حاكم سيراقوزا في إنقاذ اسبرطة ، فعقدا مؤتمر سلام في دلف ولكن جهودهما ذهبت أدراج الرياح . فلم تتخل طيبة عن شيء . بل لقد نجحت في اكتساب أرتا كسير كس نفسه إلى جانبها ولكن هذا لم يكن أحسن حظا في توطيد السلام واستمرت الحرب حتى أرهقت أمهات المدن المتعادية . وعلى هذا النحو كان استغلال اليونان لقوتها ! وفي سنة ٣٦٨ ، عقب تدخل الطيبين الظافر في مقدونيا ، أرسل البلاط المقدوني أميراً شاباً ليمتلق العلم في مدرسة طيبة العسكرية . وكان هذا الرهين يدعى فيليب .

وقد يطيب لنا أن نعرف تأثير هذه الأحداث الضخمة في نفس أفلاطون . ولكن كل ما نملكه ويا للأسف وهو الوثيقة الوحيدة المقتضبة التي أرخ أفلاطون فيها لنفسه ، أعنى الرسالة السابعة ، لا يتحدثنا مطلقاً عن الفترة بين عام ٣٨٨ وعام ٣٦٧ ولا تذكر من أحداث السنين السابقة على هذا التاريخ إلا حديثاً موجزاً جداً فضلاً عن أن ما ذكرته لا يتناول إلا سياسة أثينا الداخلية فحسب . ولما كان شبح سقراط يطغى على المحاورات فإنها لا تظهرنا بشكل مباشر إلا على رجال العهد السابق على سنة ٣٩٩ وعلى إحداث هذا العهد . والمحاورات مع هذا كله روايات بالمعنى الصحيح: فمن الطبيعي إذن أن تسمى ، كما تفعل السكوميديا ، إلى جذب انتباه الجمهور الذي تخاطبه بتلميحات تتم عن حوادث لا تزال حاضرة في الشعوب أو لا تزال ذكرها حية في النفوس .

واستدعاء تلك الحوادث اللاحقة على موت سقراط تتضمن أخطاء تاريخية تسمح لنا بأن نحدد تاريخ بعض المحاورات على نحو تقريبي ولكنها سريعة من غير شك بحيث لا نطلعنا على آراء أفلاطون الشخصية . فالأدلة التي يبدو أن أرسطوفان يشير فيها إلى تشتت مدينة مانتينه ، يجب أن يرجع تاريخها إلى ما بعد عام ٣٨٥ بسنوات قليلة . ومحاوره تيتاوس مصدره بمقدمة ذكر فيها أن تيتاوس أصيب بجرح مميت في معركة بالقرب من كورنثوس : فهي ترجع إذن ، على وجه التقريب ، إلى ما بعد عام ٣٦٩ . ويؤن سقراط في منكرين « موتى الحرب » . ويرد هذا التأين على لسان إسبازيا زوجة بركليس ، ولكي يحول بيننا وبين أن ننظر إلى هذا التصوير نظرة جدية أخذ ياخص في خطوط متباعدة تاريخ أثينا حتى سلام انتقال السيداس في عام ١٣٨٦ ! . فمن العسير حقاً أن نبحث هنالك عن صدى صادق لحكم أفلاطون على سياسة هذا الزمان .

والواقع أننا نعلم سياسة واحدة لها قيمة الآن بالنسبة إلى أفلاطون : تلك هي السياسة التي كان يمدّها في عزائه الشاقة . كان لحياة الدرس هذه سحر في نفسه عميق ، فأى مأوى هيأته هذه الحياة ليمتري فيه الفيلسوف الفار من عدوى العلم الدنس « وإذ يلتجئ الإنسان خلف حائط حالما تباغته عاصفة شديدة من الأتربة والأمطار كذلك ينأى الحكيم بنفسه عن عواصف الظلم حيث يرى الناس يضطربون ، فهو سعيد حقاً إن أقام في هذا العالم الدنيء دون أن يتلوّث بالبنى والعدوان وهو سعيد أيضاً إن فصل عنه ملء النفس بأمل جميل مطمئن القلب قرير العين » . ولكن أيرضى بمثل هذا المصير ؟ كلا ، لأنه

سيذهب في المدينة التي أقيمت له « إلى أن يرتفع بكاملها إلى أقصى حد بل إلى أن ينقذ شعبها كذلك ». وترسم لنا الجمهورية صورة تلك المدينة التي سيحقق فيها الفيلسوف حلمه بأن يحقق ذاته .

٢ — خيال وتطرف

أصبحنا بعد شيشرون نعتبر كلمة « الجمهورية » ترجمة الكلمة تقرب في معناها من كلمة « دستور » . وهذه الكلمة وحدها هي أفضل ما يعيننا على أن نفهم أن مشروع أفلاطون لم يكن حدثاً جديداً كل الجدة في ذلك العصر . أسس اليونانيون مستعمرات متعددة اعتادوا أن يقيموا فيها نظماً مأخوذة من مدن متباينة ودساتير متزايلة . ودفعوا بمستكشفهم إلى أقطار مختلفة أشد الاختلاف وعرفوا شتى أنواع النظم الاجتماعية . وولعوا بالجمع والمقارنة والابتكار . وكتب أرسطو مائة وخمسين وثمانية بحثاً في الدساتير ورأينا أفريقياس يقوم بعمل محدود من هذا القبيل . ولكن هذه المادة السياسية كانت لم تزل في عصر أفريقياس في دور التكوين بصورة أوضح مما كانت عليه في عصر أرسطو . وفي أثناء الثورات التي حدثت في عام ٤١١ ، وفي عام ٤٠٣ هيأت الحرب الأهلية وغذتها حرب مساجلات سياسية . وكانت الأفكار على حال أشبهت التباغض في تباعدها . وكانت مسألة الدساتير النافذة أو المقترحة أو المفترضة على درجة من التعقيد سمحت لمؤرخ كأرسطو نفسه أن يخطئ فيها .

أما في فترة الهدوء التي أعقبت هذه الثورات فإن أشد انقلابات المشرعين تطرفاً لم تكن انزعج بعض القراء الذين شهدوا كثيراً من التقلبات، بل وجد فيها أصحاب الكوميديات على العكس من ذلك مورداً ميسوراً . فمعرض أرسطوفان حوالى عام ٣٩٢ روايته « مجلس النساء » وتبعاً للخطة التي يفصلها زعيم برلمان النساء هذا ، يصبح كل شيء حقاً مشاعاً للجميع « من خبز وكمك وملابس وخمر وأكاليل وبقول » بل ومن نساء كذلك . وسينادى الأطفال أن « يا أبت » لكل رجل متقدم في السن . ويعمل العبيد في الأرض . أما المواطنون والمواطنات فليس من عمل لهم إلا أن يحيا في دعة وأن يتسامروا ما طاب لهم السمر . وكان هذا الذي عبر عنه أرسطوفان في سخيرية ماجنة هو الهدف الخطر الذي رمى إليه بعض الخياليين . ألم تكن النزوة السائدة في ذلك الحين هي المقابلة بين الطبيعة والقانون واعتبار كل ما هو جمعي صادراً عن تواضع الإنسان وهواه ؟ .. - فليس من عجب أن تتباعد حدود الإمكان إلى ما لا نهاية وأن يأمل الكثيرون وهم غارقين في أحلامهم في أن يعودوا إلى الحقيقة البدائية .

اعتبر أفلاطون الدولة ضرورة من ضرورات الطبيعة . ومع هذا فلم تكن النزعة الفنية لديه هي التي جمعت وحدها بين الخيال والحب . إذ أن رجل العمل يماوده القلق ، في العزلة التي فرضها على نفسه ، من أجل إعداد العدة لمستقبل بعيد جداً . فكان في حاجة إذن إلى تحقيق هذا المستقبل وإلى أن يراه حاضراً لساعته أمام عينيه لا أن يبقى حلمًا مطويا . وقد انضاف العنف الذي ثار في نفسه

نتيجة لتدبره لوطنه ونتيجة لحبه لوطنه كذلك ، إلى دافع الاستنتاج المنطقي
فتمخضا عن جرأة في التفكير لا تعرف حداً . ولكن الخبرة والسنون ستطامن
من غلوائه الذهني وستعيده إلى الائتلاف مع الواقع من جديد . رغم تنازله
على هذا النحو عن « الفروض » وتكييفه بالظروف الواقعية فإنه سيحتفظ
على الدوام بذكرى « نظريته » وأسفه عليها وسيحتفظ بما يحتفظ به مفكر
البرج العاجي من تفضيل للأفكار التي يعلم أنها أشد ما تكون بعداً
عن التحقيق .

ما هو في نظره أعظم شر للمجتمعات الموجودة ؟ .. هو الربط بين
« القوة » و « الاستمتاع » ذلك الربط الذي يعتبره الجميع طبيعياً وضرورياً .
ولقد سمعنا بولص وخاليقليس ينادى ، كلّ منهما بأسلوبه الخاص بحق
القوة وبعدالة الفعل الذي لا وازع له . ويفصل ترازوماخوس نفس النظرية في
حماس شديد في الكتاب الأول من الجمهورية . ليست العدالة إذن إلا مصلحة
الأقوى : ففي كل دولة سواء أسارت على الطغيان أم كانت ديمقراطية أو
أرستقراطية ، ليس للقوانين من غاية غير منفعة الحاكمين . أما الصور المثالية
لملك راع فأبعد ما تكون عن الفطنة بل الأحرى أن نقول أنها لغو في الحديث :
ألا نرى إلى رعاة الأغنام ورعاة الأبقار كيف يسمنون الأغنام والأبقار في غير
ما نظر إلا إلى منفعتهم ومنفعة أسيادهم ؟ .. إن شهوة الحكم لأعظم الشهوات
جالباً للنشوة - إذ كل الشهوات متضمن فيها .

أي دواء عسى أن يصلح لهذا الداء الذي أفسد كل فكرة عن الحكومة

أو يصالح على الأقل لأن يفصل فصلاً تاماً بين معنى الساطة والمنفعة الشخصية؟... أنا نجد في هذا الدواء وسيلة لرفع الداء الآخر في نفس الوقت ، أعنى الجور الفساد الذى يسود المجتمعات الشعبية والبلاد الديمقراطية . انخلى بين الشعب وبين الحرية الكاملة المطلقة في الشؤون الاقتصادية ، ولننتزع منه الساطة ومشاكل الحكم ، وعلى العكس من ذلك ننحى بين الحاكمين وجميع المشاغل المادية حتى أبسط ميول التملك والمنفعة فلا ندع لهم إلا وظيفة واحدة ، ومهمة واحدة ، هى حكم الدولة . أما المؤونة فسيكفلها جمهور الصناع والعمال لرؤسائهم كما يكفل الغذاء لكلاب الحراسة . فإذا ما أحسنت تغذية تلك الكلاب وكانت كلاب قنوعة متيقظة ستتحسن بدورها قيادة القطيع ورعايته . ويصدر عن هذا المبدأ ما نسميه عادة بشيوعية أفلاطون . وهى شيوعية إن شئنا من أشد أنواع الشيوعية تطرفاً ما فى ذلك شك ولكنها قاصرة على طبقة حراس الدولة ورؤسائها .

ولما لم يكن لهؤلاء الحراس من شاغل آخر سوى حماية المدينة وإدارتها فسننشئهم كما ينشئ حماة القلعة أو كما ينشئ جيش احتلال فى أحد المعسكرات . وكانت اسبرطة قد بثت أمثال هؤلاء الحرس فى اليونان بأسرها على وجه التقريب فى الحقبة التى ألف فيها أفلاطون محاورة الجمهورية ويحتمل أن يكون ذلك خلال الفترة التى بين عام ٣٨٤ وعام ٣٧٤ ، وكان يتولى الحكم فى كل مدينة جماعة من الأرستقراط المنتخبين تحت إشراف ورعاية هؤلاء الحرس . ولكن أفلاطون تابع ما يتضمنه مبدأه من منطق ، فشأن هؤلاء الحراس شأن

التجارين في المعسكر . لن يكون لهم منزل أو حانوت لا يطرقة الجميع . ولن تكون لهم ملكيات خاصة البتة . وسيتناولون طعامهم على موائد مشتركة بينهم ولن يتقبلوا من المواطنين إلا ما يلزمهم من مؤن لسد حاجتهم السنوية وسوف لا يتقاضون أى أجر على عملهم : وحظر عليهم وخدم امتلاك ذهب أو فضة فضلا عن مسهما أو لمسهما . وسيكونون إذن فئة من الموظفين غير مأجورة. ولنذهب إلى أبعد من ذلك بأن نذكر المبدأ الذى صاغه أفلاطون خاصاً بذلك : « لن يملك أحد منهم شيئا سوى بدنه أما كل ما عدا ذلك فهو شائع بينهم » .

يعنى بكل ما عدا ذلك النساء والأطفال أنفسهم . أما إلى أى حد تجاهل أفلاطون المرأة فهذا ما يظهر من تلك العبارة الوحشية الساذجة « كل ما هنالك من فارق بين الجنسين هو أن الذكر ينسل والأنثى تلد » . وثمة قول آخر أقل عنفاً من سابقة وهو : « فى مقدور المرأة أن تقوم بكل ما يؤديه الرجل ولكنها أقل منه قدرة وارداً منه إنتاجاً » . وكذلك كان أفلاطون عصرياً كاسبرطة التى اتخذها نموذجا له ، غير أن هؤلاء المصريين كانوا من الأقدمين . فأراد أن يلقن الفتيات نفس التعاليم التى يتلقاها الفتيان وأن يكلفهن نفس الواجبات، هذا مع مراعاة ضعف جنسهن .

لكنه ويا للأسف يذهب إلى أبعد من هذا ويسبق التجارب الخطيرة التى تحاول بعض المذاهب السياسية وإن كانت من نوع آخر أن تحققها بعد أن كانت من قبل أحلاما . « وستكون النساء حقا مشاعا بين الحراس فلا تسكن

إحداهن على الدوام إلى فرد بالذات . وسيكون الأطفال كذلك أبناء للجميع فلن يعرف ولد أباه ولا أب ابنه . ولنطوى كشحا عن التفسيرات التي تخيلها من أجل المحافظة على سلامة النوع . ولنشرفقط إلى ذلك المعهد الغريب الذي يجمع فيه الأطفال أو « روضة » الأطفال الأهلية إلى حيث تذهب الأمهات لإرضاع الأطفال ويعهدن بكل شيء آخر إلى عناية المربيات . الام تصل القسوة بمنطق ذلك الخيال ! - « علينا أن نتخذ جميع الاحتياطات الممكنة حتى لا نتعرف أى أم على ولدها » . وأن مثل هذه الخيالات لتذكرنا بكلمة بسكال - أراد أفلاطون أن يملو على الطبيعة فسقط إلى الحضيض .

٣ - نحو أحلام أنسب للإنسان

وددت لو أفصل في سرعة عن هذه الأضغاث : وأحمد الله إذ أجد في محاورة الجمهورية أشياء أخرى . وإنا لنشعر بارتياح حين نسمع سقراط يعترف في موضع آخر بأن خطته عسيرة التحقيق في مجموعها فعلينا أن نحاول الاقتراب منها قدر المستطاع فقط . وليس في وسع المرأ ألا يفكر في أن أفلاطون لو كان مسيحيا لاستطاع أن يحقق مثله الأعلى مع بقائه إنسانيا مع ذلك . ماذا يريد على وجه التحقيق ؟ .. - أراد ألا يفرق « ما هو لى وما هو لك » بين حراسه وألا تشغل قلوبهم عواطف أخرى عن أن يتفرغوا تفرغا تاما للعمل المطلوب منهم حتى ولو كانت هذه أقدس العواطف حرمة . ولما عجز عن الكشف عن وسائل أخرى للزهد فقد لجأ إلى الزيع ، والتخبط فزاد الطبيعة

قسوة على قسوتها . هذا وقد لجأت عصورنا الوسطى إلى إيجاد النظم الدينية العسكرية في سبيل حل مشكلة كنتك .

وإننا لسعداء إذ نجد فيه إلى جانب المنطق الفظ مدافعا إنسانيا إلى أقصى حد عن « حقوق بني الإنسان » ولعل من الواجب أن نقول « عن حقوق اليونانيين » فحسب . ولكن ألا يكفي في سبيل تحقيق حلم السلام الشامل أن نبدأ أولا بتلطيف النزاع بين الأخوة والجيرة ؟ ... — أليس في السلام الأوروبي مقدمة جميلة لسلام عالمي ؟ ... — أدرك أفلاطون إذن كما أدرك بعض ذوى النفوس النبيلة في ذلك الحين أمثال جورجياس عينه وإيزياس وإيزوقراط أن الحرب الداخلية بين اليونان هي السبب الوحيد في غلبة البرابرة . وهو يقر بذلك ولكنه لما لم يكن يأمل في أن تضع الحرب أوزارها في الحال أراد أن يوقف الجميع على حقيقة أنها على الأقل وبين لهم أنها حرب أهلية ومرض عضال وآفة يجب أن نضع لخطرها حداً . فيجب إذن ألا تستعبد أى مدينة يونانية أو أى نفس يونانية . وألا تسلب أمتعة الموتى ولا تحرق أرض الوطن ولا تحرق المنازل . وأن نقنع بمحصول العام . وألا يعامل مواطنو الدولة معاملة الأعداء سواء أكانوا رجالا أم نساء أم أطفالا . وألا نعد من أجل الحرب إلى ما بعد اليوم الذى يتقدم فيه بالاعتذار المذنبون الحقيقيون ومن كانوا سبب الخصومة . وفي اختصار ألا نقوم بأى حركة من شأنها أن تشمل الحرب دون أن نذكر وجوب نشر السلام في صبيحة اليوم التالى . أفكار جميلة ، كانت لها قيمتها وسط فظائع كنتك التى لحنها من قبل . فهل كانت هذه الأفكار

أقل أثرًا في نضالنا « العلمى » فيما بعد ؟

لم يكن أفلاطون يقينًا ليبشر بسياسة خداع . ولم يكن ليؤمن بأن ثمة معجزة مستلخص الإنسانية أو لينصح لشعب ما أن يهب نفسه لقمة سائفة لا طماع الآخرين . وبقدر ما يعرف من يطنطنون بذكر الحرب أوطانهم لا ضرار لا تغتفر أخذ أفلاطون يعيب ، في محاوره السياسى ، أخلاق التخاذل « التى تحوات من حب فاضح للسلام إلى فقدان كل قدرة على الحرب وأصبح الناس وهم تحت رحمة أول مهاجم » ، ولم يعتبر الحرب أقل خطراً من هذا . فأخذ في محاوره الجمهورية نفسها وكذلك في محاوره القوانين منذ بدايتها وهى جميعاً تعتبر دستور هذا الفكر ، يثور في حدة ضد المثل الأعلى للمحارب الذى قدسته كل من كريت ولا قيد ومونيا . وكانت الحرب قد أصبحت المصدر الوحيد لمصائب المرتزقة الذين أخذوا يعرضون خدماتهم منذ أمد بعيد على طيبة حيناً وعلى أثينا أو على اسبرطة حيناً آخر وعلى مصر أو فارس حيناً ثالثاً ، ثم أكثرتهم مقدونيا لغزو العالم . ويحقر أفلاطون من شأن هؤلاء القتلة الأجراء ولكنه يدعو في نفس الوقت إلى إجلال أصحاب الضمائر أوائك الذين يجد فيهم الوطن أمنه وطمأنينته وهو يضع هؤلاء في مرتبة تتلو مرتبة الشرعين مباشرة . وهذا لا يمنعه من أن يصرح بأن الحرب ليست غاية للدول ولكن السلام هو الغاية أو أن الغاية هى شيء يفضل كل شيء آخر بل ويفضل فضيلة السلام الإنسانى نفسها أعنى الإنصاف التام.

٤ - مملكة الانصاف

لئن كان القدر العائر قد شاء أن يحرمنا من كل محاورات أفلاطون فيما عدا الجمهورية فإننا سنجد أيضاً فيما يكشف عنه هذا الأثر الرائع من ثروة في الفكر وفي النغمات والأسلوب دواعي كافية لتبرير إعجاب القرون المتتالية « بأفلاطون الإله » . وتبلغ هذه المحاورة وحدها من الاتساع ما لا تكاد تبلغه محاورات جورجياس ومينون وفيدون والمأدبة سوياء ، بل وكل ما عالجته هذه المحاورات من نظريات تلتقى جميعاً في تلك المحاورة . وهي من جهة أخرى مملوءة بأفكار تزيدها المحاورات اللاحقة تفصيلاً . وكان أفلاطون قد فصل عن هذه المحاورة من حين إلى آخر خلال السنوات التي أوقفها على تأليفها لينشئ محاورات أخرى أقصر منها . ومهما يكن من أمر تعقيدها فإنها بديعة البنيان لا تكتسب وحدتها من ذلك الفن الدقيق الذي يجانس بين أجزائها فحسب بل إن ثمة فكرة تسودها وتكسبها الحركة والحياة — تلك هي فكرة الإنصاف . ارتطم العالم من وقت لآخر بنظريات تقرر القسوة والظلم . ولكن الواقع أن العالم يزدري القوم العادلين ويحتقرهم إن كانوا ضعفاء بائسين ولا يحب إلا الفوز والانتصار . ولكن الفوز يوث الظالم الذي يحيط نفسه بظهر الخير ويجنى الشر في غير ما حرج ولا تردد . وقد يهتدى العادل في سيره بضوء ضميره . ولكن هذا الضوء لا ينير العالم . فإن لم ينبغ عن العدالة حولاً يُنكر فضله ويزدري شأنه « فيضرب بالسياط ويعذب ويكبل بالأصفاد ويقضى على

نور عينيه . ثم يصاب بعد أن يذوق هذا العذاب الشديد . ألا يرعى حينئذ أن المسألة لا تنحصر في أن يكون منصفاً بل تنحصر في أن يبدو كذلك ؟ ... — « ماذا يذكر الشعراء الآن وهم أضواء العالم ؟ ... — اثن تمدحوا بالنصف فإنما يفعلون ذلك ليذكروا لنا أن الآلهة إنما تطفئ له النعيم وتفيض عليه بالخيرات وأنها ستجزيه حتى بعد موته جزاء ماديا . ولكن كم يعملون من سبيل العدالة طريقاً وعثة شاقة ! أما طريق البغي فهي على النقيض لينه منشوره بالرياحين . ألم نر إلى آلهة هؤلاء الشعراء كيف وهنت هزيمتهم في تواعد الظالم بعذاب الجحيم ؟ لأن أرادوا منا تقدير العدالة حتى قدرها لامتنعوا عن تصويرها في صورة سبيل غير مأمون الجانب إلى حد ما وقالوا لنا أن العدالة هي ذاتها أفضل فضائل النفس وأن الظلم أردأ سيئاتها .

ولكن نعرف طبيعة العدالة في حقيقتها لن تترتب حتى نكشف عنها في حياة الإنسان الخاصة . فنفس الإنسان ميدان شديد الضيق ، خطت عليه الحقيقة بحروف دقيقة يمز على بصرنا القاصر إدراكها . فالأجدي أن ننظر في حياة المدينة وأن نسع إلى قراءة الحقيقة في صفحة هذه النفس الكلية ، التي تكشف لنا في صيغة مكبرة ميسورة القراءة عن سطور النفس الفردية . تتكون المدينة من ثلاث طبقات من بني الإنسان ، الطبقة الحاكمة وطبقة الجند وطبقة الصناع والعمال . فإن تحقق هؤلاء بالصفات المفروضة فيهم مثلات طبقة الحكام الحاكمة في النفس الكلية وتجسد الجند الشجاعة . أما الاعتدال أو ضبط النفس ، فيسود المدينة إن احتفظت بتدرج متناسب بين أفرادها .

فأين موضع العدالة ؟ . . — توجد في النظام الذي يضع كل كائن في موضعه والذي يحدد نشاط الكائن ورغباته بمحدود وظيفته الخاصة . فلكل عمله . وما ينبغي للنجار أن يستحوز على آلات الحداء ولا أن يتدخل في صنع الأحذية فإن هذا عين الفوضى وكم تكون الفوضى أوخم عاقبة لو أن النجار أو الحداء أرادا من غير تدريب أو كفاية أن يقوموا بعمل الجند أو أن الجندي أراد أن يحمل محل الحاكم . فإذا ظل كل عنصر من عناصر المدينة وظلت كل قوة من قوى النفس في موضعها وقامت بوظيفتها على خير وجه، استتب النظام وسادت العدالة . أما النظام فهو الصحة بالنسبة للنفس وللجسم على السواء وهو خير النفس الطبيعي وشرط حياتها السليمة . أفي حاجة نحن الآن إلى أن نتساءل ما إذا كانت العدالة خير من الظلم أو كانت مفيدة للفرد أو للمدينة ؟

إن واجب التهذيب هو بث الأفكار والعادات التي تكفل هذا النظام الطبيعي بل هذا النظام الغريزي إن صح هذا التعبير . يجب أن يبدأ التهذيب منذ الحداثة وأن يستمر حينئذ بالقصص وهنا نرى أفلاطون ، ذلك النظري الذي نادى بالعلم المطلق ، لا ينكر أن العلم لا ينفذ إلى الحياة إلا على هيئة قطرات . فإنا نظل أطفالا لمدة طويلة وما أسهل ما نعود إلى ذلك الطور ! إن الغريزة هي التي تقودنا في أغلب الأحيان وكذلك في الأحيان التي تنساق فيها لفكرة ما ، نرى أنها تنبثق فينا من أعماق ذكريات معتمة . وأفعالنا إنما تصدر عن جبر وعن تأثيرات لا يئالها الشك وإذا صدر تصرفنا عن مؤثرات واضحة

فإن هذه الأخيرة أقرب ماتكون في أغلب الأحيان إلى الوجدانات أو الحدوس أو الاستدلالات المحتملة منها إلى الاستنتاجات اليقينية. فالتقاليد والاعتقادات والخرافات والظنون قوى تفوق العلم في التأثير . علم أفلاطون هذه الحقيقة وأخذ يستعين بها ماوسمه ذلك ليهيئ على الأقل الطريق المؤدية إلى الاستدلال واستعان بها كذلك ليحل الاستدلال محله من النفوس التي لم تكن تستسيغه من قبل . ولئن كان أفلاطون قد قبل الخرافة فإنه قد اشترط على الأقل أن تكون جدية حائرة على الخير ، وإن كان ظاهر الخرافة لا أساس له من الصحة فقد أراد أفلاطون أن تكون صحيحة في دلالتها .

وسيفتلق مشرعوه أنفسهم قصة خرافية ، إذ يذكرون للجراس والجند والصناع والعمال أنهم جميعاً إنما نشأوا وخلقوا من طينة واحدة كانت تختلط بالذهب والفضة والحديد . يولد الأطفال عادة من نفس معدن آبائهم ، ولكن قد يمتشج ابن الحارس يوماً ما بالحديد بدلا من الذهب ، وقد يولد ابن الحاطب ونفسه من ذهب . وحينئذ يُرفعوا أو يُخفضوا من غير ما تأخير إلى درجات استئناسهم ، لأن المدينة ، هكذا يقول المشرعون ، تهلك لاحتالة إن تولى عنصر الحديد السلطة فيها . فالطوائف عند أفلاطون إذن مباحة للجميع إلى حد ما .

ثمة قوم يحترفون صناعة القصص ، ومن هؤلاء يتلقى الشعب أكبر قسط من ثقافته . ويحدثنا أفلاطون بدوره بعهد هرقليطس واكسينوفان عن قيمة هؤلاء المثقفين ؛ فيسخر هو الآخر في عنف من أسياد الخيال أولئك الذين أصبحوا أسياداً للحياة ، لذلك لن يخلّى بين خيالهم الحصب وبين سلطة غير

مأمونة الجانب في مدينته التي يشيدها . نعم ، أتى هوميروس وهزiod بدین اليونان . ولكن الفكرة التي يقدمانها عن الآلهة متضاربة بعيدة عن كريم الخلق مملوءة بالنفاق . فلن نسمح إذن لأكاذيبهم بأن تستمر في تسميم النفوس . كفتنا تلك الآلهة التي تتطاحن وتضطرع وتأتى الفحش والنكر ، والتي تفار من بنى الإنسان وتنتقم من سمادتهم ! ليس شأننا أن نؤلف قصصاً ، ولكننا نطلب ممن يتحدثون عن الآلهة أن يراعوا هذه القاعدة العامة وهي : أن تظهر الملاحم والأناشيد والتراجيديا ، الله على حقيقته . فالله ليس علة للشر ما دامت ماهيته الخير ، والله لا يفعل إلا العدل : فإن عاقب المجرمين فإنما يبنى هدايتهم وصالحهم . والله بسيط في غير تعدد أو كذب : لا يُغَيَّرُ من صورته ولا يبدل من كيانه أو من الحقيقة التي هي ذاته . فلن نتغاضى إذن عن القول بأن الآلهة سحرة ويذنبى أن نخلص أعمال هؤلاء الشعراء تخلصاً تاماً من عناصر الفساد « إن شئنا أن يكون حماتنا صالحين تشملهم القداسة إلى أقصى ما يمكن أن يصل إليه الإنسان » .

سنبعد كذلك كل الفقرات التي تصوّر الأبطال ليكون أو يتألمون ، يكذبون أو يتنازعون ، يتشائمون أو كانوا في أفعالهم يفرطون . إن الشعر تقليد في أساسه ولكنه مولد للتقليد كذلك : فهو يبعث في نفوسنا ويثير فينا المشاعر والأفعال التي يتناولها بالوصف . لذلك لا يقبل أفلاطون منه إلا ما كان موضوعه الفضائل وكانت وسيلته البحور والأوزان الهادئة البسيطة . وأخذ أفلاطون بنفس القاعدة في اختيار الأغاني والإنشاء والتصوير والنحت والتدريبات

الرياضية ، وأخذ بها كذلك في العلم الذي ليس إلا امتداداً لها ، أعنى الطب .
فهذا العلم الأخير يجب ألا يكون من أغراضه المحافظة على حياة من لا نفع فيهم .
لذلك أراد أفلاطون لهروديكيوس التمس - صاحب الملعب الذي أقعده المرض
فصرف جهوده إلى المزاوجة بين التدريبات الرياضية والطب - « أن يمضى مابقى
له من عمر في ركود وعزلة » . ويحدثنا أفلاطون عن نبحار سقط مريضاً فقبل
أن يظهر جسمه وأن تبتز الأعضاء المعتلة منه وأن يحرق ، وقد حدث ذلك في
غير توان . أما لو أتاه حديث علاج دقيق طويل لعاد إلى منشاره ومموله ، فإما
أن يشفيه العمل أو يخلصه الموت .

آداب وموسيقى وألعاب رياضية ، ذلك هو المنهج العام الذي يكفى جماعة
الحراس . ولكن يوجد من بينهم ممتازين نادرين أعدتهم الطبيعة لأسمى الأعمال
فهم يتحرقون شوقاً إلى العلم وإلى العلم بكل فروعه ، ويفنون تأمل الحقيقة
الخالصة فيلتمسونها في الحقيقة اللامتغيرة في الأشياء العابرة . أولئك فلاسفة
بالفطرة : وسيحصلون عن طريق التدريب والتعليم على درجة من الكمال
تمكّننا من أن نعهد إليهم بإدارة المدينة في غير ما وجل . ذلك أن أفلاطون
يعلم بأعلى صوته أن : « لن يسود البشر سلام ما برح الفلاسفة بعيدين عن
عرش المدن أو لم يتحول الملوك وأصحاب السلطان إلى فلاسفة بمعنى الكلمة » .
وسواء وهب الفكرة القوة أو أعاد القوة إلى الفكرة ، ألم يكن هذا حلمًا نبيلًا
في عصر أكد ومارس حق القوة وحده ؟ ..

إن الطريق المؤدى إلى علم السيادة الحق هذا ، طريق شاق بعيد ، وإن

كانت الفلسفة قد نُبذت إلى هذا الحد فلعل السبب في ذلك أن يرجع إلى سوء معاشرتها في أغلب الأحيان ويرجع السبب في ذلك أيضاً إلى الاقتراب منها والابتعاد عنها في سرعة شديدة باعتبارها مرحلة بين عهد المدرسة وعهد الحياة العملية . فقد أُعتبرت فضلاً من ثقافة يُفتخر بالحصول عليها ولكن ذلك يكون في عجلة ورفق . ولما كانت الفلسفة كمال فسوف لا نسمح لأفضل حراسنا يلوغ هذا الكمال إلا بعد تدرج منهجي وسلسلة اختبارات عسيرة .

سوف نعلمهم منذ الحداثة الحساب والهندسة وغيرها من العلوم التي توظف الروح الفلسفية . وسوف نخلص هذا الضرب من التعليم من كل إرغام . فيلقن الأطفال العلم كما لو كانوا يلعبون ويمرحون . وفي سن العشرين بعد أن يمضوا عامين أو ثلاثة أعوام في التدريبات الرياضية ، يمود أذكاهم روحاً إلى ممارسة العلوم من جديد ، ولكنهم يتعمقونها في هذه المرة ويمسكون أعنتها بوجه خاص بأن يتمكنوا من نظامها وتسلسلها ، ثم يساقون من علم لآخر درجة درجة حتى يبلغوا علم الحقائق المعقولة أو الجدل . فيقتربون من هذا العلم في سن الثلاثين ويلبثون عرائكهم بممارسة مختلف مناهج الاستدلال الفلسفي . وليست الغاية من ذلك مجرد الزهو الذي لا طائل ورائه أو المجادلة اللفظية التي لا نفع فيها ، ولكن الغاية هي التعود على إدراك الحقيقة على خير وجه وعلى الدفاع عنها بأفضل الطرق .

وفي سن الخامسة والثلاثين يهبطون من قمم الأفكار المجردة لكي يقوموا خلال خمسة عشر عاماً بكل الواجبات العسكرية والمدنية المفروضة على كل

رجل فتى . وفي سن الخمسين فقط يسمح لأولئك الذين يجوزون كل هذه الاختبارات بنجاح أن يتأملوا بصفة دائمة ماهية الخير أى الشمس المعقولة منبع كل وجود وكل نشاط ومسبار كل وجود وكل نشاط . ولن يكون هذا ضرباً من التأمل الكسول . وانصل الحديث بتلك الصورة التى أحبها أفلاطون، مثلهم مثل البحارة على المركب سيدع كل منهم دراساته المهيكلة لكي يحظى « بقسطه من الحراسة » وسيكون هذا واجباً لا محيص عنه أكثر من كونه شرفاً يتقلدونه : فيتواترون على حكم المدينة وينشئون رجالاً أكفاء لأن يحلوا محلهم . حينما يفرغون من تأدية عمالهم على خير وجه يرحلون إلى الجزر السعيدة حيث يلقون خير جزاء . وستمجدهم الدولة كما لو كانوا كائنات إلهية.

هـ — انحراف وتقهر

إن تولى الحكم فرد من بين هؤلاء الحراس الفلاسفة قلنا عن الدولة أنها ملكية ، وإن تقام السلطة كثيرون سمينها أرستقراطية . وليس ثمة من اختلاف إلا فى التسمية : فجوهر المسألة هو أن يستمد الحاكم أو من يدهم الحكم قوتهم من المبادئ التى قررناها وأن يداوموا على تنفيذها .

ويبدو من العسير أن يتغير دستور بلغ من الكمال هذه الدرجة . بيد أن الأجيال الإنسانية خاضعة لقوانين غريبة فى تقدمها وتدهورها فقد يقوم الزواج على غير أساس من الوفاق وقد تسوء رقابة المواليد فيختلط الحديد بالفضة بغير حق ويمتزج البرنز بالذهب . تلك هى بذور القلاقل والفتن . أما الحاكمون

والجند وقد انتصروا في نهاية الأمر سوف يفيدون من هذه الحال في الاستحواز على الأراضي والمنازل وفي استرقاق العمال والصناع الذين عاملوهم من قبل معاملة الأحرار . ويستبقون إلى جانب ذلك من النظام الارستقراطي احتقارهم للأعمال التي تدر الربح وتناولهم الطعام على موائد مشتركة وكلفهم بالتدريبات الحربية والرياضية . ولكنهم سوف ينحرفون عن الفلسفة ويكلفون بالقتال والسلطة والمال . تلك هي التيموقراطية ، حكومة أساسها الطمع، تراها متحققة في نظم كريت ولاقيدومونيا .

تبعث الملكية الفردية حب المال في النفوس وخاصة حينما يجد المالك نفسه مدفوعاً إلى أن يحافظ عليها وإلى أن ينميها دون أن يقوم بأي عمل من جانبه . وسرعان ما يصبح الفرد ولا مطمع له إلا أن يغدو مثيراً وأن يبدو كذلك . ثم تصل الحال عاجلاً أو آجلاً إلى عدم السماح لأي فرد بالوصول إلى الوظائف العامة دون أن يكون ذا نصاب مالي معين . وهكذا تنشأ الأوليغاركية حكومة الأقلية الرأسمالية .

وسرعان ما تنقسم الدولة على نفسها : فلا تعود مدينة واحدة بل مدينتين ، إحداهما للأغنياء والثانية للفقراء تحيا الواحدة منهما في الخزي وتنهش كل منهما الأخرى . وإذا كان لكل فرد حق البيع والشراء فإن البخلاء سوف يغنمون من انهيار المسرفين . ويصبح هؤلاء « الأغنياء الأقدمون » وقد قنطوا ، كالزناير التي لا تطلع عن الطنين والإيذاء . فيصبحون وليس لهم من أمل إلا في الثورة لفقدانهم الخير والشرف في آن واحد . وأما أيسر أن تثار

هذه الثورة فقد عجم الفقراء عود الأغنياء على ظهر البوارج الحربية أو في ميادين القتال وسبروا غورهم وانتهوا إلى القول بأن : « هؤلاء القوم ليسوا أقوياء إلا لأننا جبناء » . فيثورون في أول مناسبة وينالون زمام الحكم وبذلك تحل الديمقراطية محل الأوليفاركية .

هل الديمقراطية حكومة ؟ .. أليست جديرة بأن تكون حشداً ، كما يحدث في السوق ، لما نشاء من أصناف الحكومات فكل فرد يحيا تحت ظلها بأسلوبه الخاص ، وفيها يجد أصحاب الطرق الحرية التامة لنشر تعاليمهم . وفي حماها تنأ كد كل الطباع . ليس نعمة ما يفوق هذا التأين كثرة وتساهلا ، وما أكثر التسامح في هذا الحكم ! إذ يتحرك من حكم عليهم بالإعدام أو بالنفي في حرية ويتغطرسون في صلف كأنهم أبطال . ويفوز بالأصوات أكثر الأفراد طنطنة في تنصيب أنفسهم قادة للشعب ، فلا يحاسب أحد عن نشأتهم أو عمن زكاهم . وفي هذه الغمارة حيث يستوى الكهل والشاب ، والغنى والفقر ، والحر والعبد يتولى القيادة الزناير الذين أسلفنا فيهم القول . فيقوم بالدعاية أكثرهم حماساً وكذلك يقترحون القوانين ، ويتزاحم الآخرون مطنطنين من حول المحكمة خانقين كل صوت معارض : ولا عجب فهم السادة . يقسمون ثروات الأغنياء على الشعب محتفظين لأنفسهم بأوفر نصيب ، وتذهب شكوى الأغنياء أدراج الرياح ويساقون آخر الأمر إلى القيام بحركات يهتمون بتدبيرها للقضاء عليهم ، بمعنى أنهم يتآمرون ويشيرون الفتن .

نمة رجل يحذق تملق الشعب على الدوام وينصب نفسه حامياً له ، زنبار

ذو حمة حادة وشهوة مفرطة ، مستعد لكل انقلاب وإراقة للدماء إن بدت له من وراء ذلك السلطة والثراء . فيلغى الديون ويقتسم الأراضي ويشرّد الأغنياء ويقتلهم . أما خصومه وقد عجزوا عن القضاء عليه بالطرق المشروعة فإنهم يتخذون مسالك أخرى . وهذا ما كان يؤمل فيه : فيشكل هيئة تحرّسه وسرعان ما « يتربع على عربة الدولة ظافراً » . وليس « حامى الشعب » فى أول عهده إلا ابتسامات ووعود وعطايا . ولكن كل هذا يختفى ويخبو (الحماس) الشعبى . فيثيره حامى الشعب بإعلان الحرب التى يؤكد فيها دور المنقذ . فأى وسيلة أخرى عسى أن تفضل هذه لإعواز الشعب ولكسر شوكرته ؛ وأى ظرف أنسب من هذا للتخلص ممن يخشاهم ؟ .. وعند ما تجار الأصوات بالشكوى يخنفها فى لجة من الدماء ، ويبدأ بالقضاء على من صعد على أكتافهم ، وهكذا لا يرى من حوله إلا أعداء فينمزل فى حصنه كدابة متوحشة وهناك يحيا تساوره الشكوك والخاوف .

الطغيان ؛ تلك هى آخر درجة من درجات الانحطاط التدريجى . هو أقصى ما يمكن أن يصل إليه الجور ، وهو أقصى ما يمكن أن تصل إليه الدولة من شقاء . وهل يكون الطغيان شيئاً آخر للطاغية نفسه ؟ .. ولكى يفصل سقراط فى سعادة الطاغية أو شقائه يستحضر « صورة ذلك الذى عاش تحت سقفه والذى عرفه (سقراط) فى حياته الخاصة عارياً عن نقابه وعن مظهره التمثيلى » ويذكر هذا الأخير « أن الطاغية تضطره طبيعته سلطته إلى أن يصبح أشقى الناس وإلى أن يجعل الذين يحيطون به أشقياء مثله » .

إن أفلاطون الذى يحلل الطغيان ويحكم عليه فى شيء كثير من العنف نراه مع ذلك يحلم إن لم يكن بأمل فى استخدام هذا الطغيان فى سبيل تحقيق غاياته . ويتساءل أفلاطون فيما قبل أى فى الكتاب السادس من هذه المحاوره ، هل يستحيل إطلاقاً أن يولد أبناء الملوك والسلطين مفلطين على روح فلسفية ؟ إن البيئة تفسدهم : ليسكن هذا ولكن هل لإنسان أن يؤكد أن أحداً لن ينجو من هذا الوسط ؟ .. ما أيسر ما يتوصل إلى إقناع الشعب ! لأن للشعب روح طيبة فى الأصل . فلننوره فى رفق دون أن نشتجر وإياه ولنرشدته إلى ماهية الفيلسوف الحق وحينئذ سوف يكاف به .

أما عن الفيلسوف فنحن نعرف أنه لن يسمى إلى فرض السعادة على وطنه عن طريق القوة . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن الوطن الجدير وحده بالفيلسوف هو ما نعتزم إيراد صورته : إذ ليس لهذا الوطن من وجود إلى فى ذهننا بل الأفضل من ذلك أن نقول إن مثله « مَثَلٌ نموذج فى السماء » وسواء كان ممكن التحقق أو كان غير ذلك فلن يدبر الحكيم وطناً سواه .

خبرة صقلية ودستور المصلح

١ - تتويج طاغية شاب

في الفترة التي كان يحرق فيها أفلاطون الكتب الأخيرة من محاوره الجمهورية، وذلك قبل معركة لوقطرس بمدة وجيزة، كان دنيس الأول حاكم سراقوزا في ذروة المجد.

كان دائما حليف اسبرطة وظل كذلك حتى النهاية. وانتقمت أثينا من هذا الحلف في تهكم طالما آله. وكانت لدنيس ثقافة حقا: فكان يؤلف بنفسه التراجم والاشعار الغنائية وكان يصبو إلى مجد أدبي. وحين انحازت أثينا إلى جانب اسبرطة عام ٣٦٩، أرسل إلى أثينا إحدى سفاراته فاكسب حق المدنيين. وفي أوائل عام ٣٦٧ صار حليفا لها: وامل هذا أن يكون السبب في أن تنال تراجيديته « دية هكتور » الفوز في موسم الألعاب الليلية التي أقيمت في تلك السنة. وتذكر بعض روايات مُغرُضة أن ما تبع ذلك من لهو ومن ما آدب كان سببا في موته. والواقع أنه لم يمض إلا بعد ذلك بأشهر عدة.

ترك لولده الأكبر دنيس الثاني إمبراطورية رائعة إذ انخرطت صقلية بأسرها تحت سيادة سراقوزا خلا الطرف الغربي الذي احتفظ به القرطاجنيون؛ وشمال كاليفرنيا الحالية في إيطاليا حتى الخط الذي يمر من تروپيا إلى كوتروني

وكان دنيس الثانى ابنا لدوريس اللاكرونية . ولكن دنيس الأكبر كان قد تزوج كذلك من أرسثوماخى أخت ديون . وقد حاول هذا الأخير عبثاً ، أثناء مرض الطاغية ، أن يمكن ابنى أخته هيبيا رينوس ونيزيوس من المشاركة فى السلطة . إذ مات دنيس قبل تحقيق رغباته ولم يرغب القواد الحربيون فى الانتقال من الامبراطورية بتقسيمها ، فنادوا بدنيس الشاب ملكاً .

وكان أبوه قد ظل بدافع الغيرة محتفظاً به بعيداً على الدوام . فكان يُشغَلُ إما بأعمال النجارة أو بمحاولات فى الشعر حيث أظهر طلاقه . إلا أنه وبالأسف قد أمعن فى كل ضروب المجون . وأراد ديون الذى أخلص الخدمة للأب أن يفتشل الأمير الشاب من مزلقه الوعة ومن برائن رائديه الذين هيثوا له سبل هذه المفاسد . وأمل ديون فى الوقت نفسه فى أن ينحاز بالسلطان الجديد إلى الملكية المستنيرة العادلة التى أصبحت مثله الأعلى منذ أن عرف أفلاطون . لذلك حرر لهذا الأخير أشد رسائله إلحاحاً وراح يصور له عظمة هذه الإمبراطورية وذلك السلطان الذى اكتسبه ديون فيها والسهولة فى إصلاح دنيس الذى كان قد اتجه نحو الفلسفة والعلم ، والمعاونة التى سيجدها فى أقارب الأمير من الشباب الذين زاملوه فى الدرس راغبين والذين شايعوه مختارين . وأخذ يهيب بالأمنية التى طالما تمنّاها أفلاطون - إلا وهى أن يصبح رؤساء الدولة أو أبناؤهم فلاسفة . وها قد حانت الفرصة أخيراً لتحويل قدرة طاغية شاب مطيع نحو الخير ولتأسيس مدينة كاملة بوساطته .

ولكن أنى لأفلاطون الذى كان دائم الطمن فى الطفيان أن يلجأ مع هذا

إلى طاعية محاولا تحقيق مثله الأعلى ؟ . . . أليس في ذلك تناقض ؟ . . . -
 كلا - فالطاعية في مشروعات أفلاطون ليس إلا أداة للانتقال ووسيلة مؤقتة.
 والطاعية هو القوة التي لها وجودها . فإذا استنار وإذا كرّس نفسه لخدمة
 الفكرة فسوف يتم التحول المسير من الفوضى إلى النظام في أقل وقت ممكن
 وبأقل عنف ممكن . « وسوف يصطف المواطنون في سرعة تحت إرادة الرجل
 الذي يملك في يديه القوة والقدوة » وسيطيعونه بالقدر الذي يجعل من نفسه
 مثلاً يحتذى « بممارسته لكل الفضائل » فليس ثمة حينئذ طاعية أو طغيان بل
 دولة ذات دستور كامل وحاكم فليست ينشئ تابعه أو تابعيه على احترام هذا
 الدستور . وجد أفلاطون في هذا استدلالاً صحيحاً وصادقاً . ولكن خبرته في
 صقلية ستثبت له إثباتاً قاطعاً إن أعلى الاستدلالات درجة في المنطق لا تنطبق
 على الواقع دون تعديل .

كان أفلاطون يبلغ الثالثة والستين عاماً حينما دعاه ديون إلى بلاط سراقوزا.
 وكان نفوذه وبعد صيته عظيمين لا في أثينا فحسب، حيث كان نجاح « المفكرين
 وصغار المفكرين » ، كما ذكر أرسطوفان ، دائماً أقل بكثير من نجاح الجمعيات
 والحديثين ، بل في اليونان بأسرها . وقد جاءه الطلبة من كل حذب وصوب
 من ميغاريا أو من أخية وأركاديا ومن إيليديا ، ومن جزائر لسبوس وقبرص ،
 ومن مدن آسيا كترواد وفريجة وبونتا . وكانت لوقريدا ومقدونيا وتراقيا
 تبعث إليه كذلك بشبابها الممتاز . وما أن كاد يعود طلبة الأكاديمية إلى بلادهم
 حتى يقومون فيها بدور سياسي في أغلب الأحيان . فبرز منهم كثيرون

في التشريع واشتهر آخرون بالدفاع عن الحرية ضد الطغيان. وكان ممن يستمعون لأفلاطون في ذلك الحين إيفريوس من أوربا في أيونيا الذي سرعان ما ظفر بنفوذ عظيم في بلاط مقدونيا تحت حكم برديكاس والذي لا بد وأن يكون قد مات أثناء دفاعه عن استقلال اليونان ضد فيليب .

وأخيراً ، كان أفلاطون قد نشر في تلك الحقبة ما يقرب من عشرين محاضرة . وجاءت من بعد مؤلفة الضخم «الجمهورية» محاضرة «فدرس» شرعة واضحة في الحب الصافي واللغة العذبة ومن المحتمل أن تأتي بعد ذلك درامة «برمنيدس» معجزة الميتافيزيقا تلك المحاضرة المويصة الآخذة بمجامع القلوب . ولما بلغ قمة المجد الأدبي أخذ يتحول شيئاً فشيئاً نحو المشاكل المنطقية والمنهجية . وانغمس كذلك في تاريخ الفكر المتقدم عليه . وحاول أن يخطط طريقه في وضوح بين أولئك الذين لم يروا في العالم إلا تغيراً وحركة وأولئك الذين اعتبروا حركة الأشياء وحركة السماوات نفسها مجرد خداع . فأخذ يفكر في محاضرة طويلة يمرض فيها بأسلوبه الخاص نشأة العالم وتكوينه . وعلى هذا النحو حل أفلاطون محل عبث أصحاب الأساطير الأقدمين وأصحاب الكونيات الغابرين وسنخر أحسن ما وصل إليه العلم الحديث ذلك العلم الكافر عادة في خدمة مثاليته .

أكان عليه إذن ، كما تذكر الرسالة السابعة « أن يهجر هذه الأعمال التي لا تخلو من مجد ؟ » إن الحياة في ظل الطغيان تتناسب قليلاً مع مزاج المؤلف ومع رئيس المدرسة ومع الحالة التي كان عليها . ولكن أليس الإعراض عن

الظرف المناسب معناه «التحول إلى اللغو» الذي لا يصلح إلا لإنشاء مدن في الهواء ؟ .. - أليس في ذلك غدر بصدقة ديون وصدقة الفلسفة في وقت واحد ؟ .. - عزم أفلاطون على أمر ما . فمهد بالمدرسة إلى أحد طلبته الأقدمين هو إسبيريوس ابن أخته فتونى ، أو ربما عهد بها إلى أبودوكس ، ثم رحل في ربيع عام ٣٦٦ فيما يحتمل .

٢ - أفلاطون ودينيس الأصغر

استقبله دينيس الأصغر في كثير من الإجلال إذ كانت هذه الزيارة ترضى فيه الفضول والكبرياء معاً . ولكنه وجد القصر مليئاً بالانقسامات والدسائس . وقد خشي نفوذه أنصار الطغيان التام فأعادوا ، رغبة في مقاومة هذا النفوذ ، المؤرخ فيلستوف من منفاه ، وكان قد أبعده دينيس منذ عشرين عاماً خلت . عاون فيلستوف هذا الأخير على أن يصل إلى السلطة وكان تام التأهب لأن يخلص لابنه ولأن يؤيده في الطريق المستقيم . وأخذت الدسائس تتزايد ضد ديون . وكان دينيس الأصغر ميالاً للاستماع لها - فقد كان يعرف المحاولات الفاشلة التي بذلها ديون لصالح ابن أخته ، ولما كان قد ورث الامبراطورية بأسرها رغماً عنه أخذ يعاني في عسر وصايقته السياسية أو الأخلاقية ولم يكن يتحمل هذا كله إلا بدافع الخوف مثله في ذلك مثل طفل كبير .

ومن المرجح أن أفلاطون نزل ضيقاً على ديون . فقد كانت الدسائس على أشدها في القصر . وها قد حصل حزب فيلستوس بعد مضي ثلاثة أشهر

على الحجة التي كانوا يبحثون عنها . كانت جميع المآهديات قد نسخت بمجرد تغير شكل الحكم وكان من الواجب أن تعقد مفاوضات مع القرطاجنيين بصفة خاصة . فعثروا خلصة على خطاب من ديون ، الذي كان هو الوسيط على الدوام في مثل هذه المفاوضات في الحكم السابق ، يلتمس فيه من القرطاجنيين ألا يدخلوا في أى مفاوضة لا يكون هو ممثلاً فيها . فنادى أعداؤه بأن ثمة خيانة واعتبروا مشاريعه الإصلاحية مؤامرة ضد نظام الحكم . فاستقل ديون سفينة صغيرة نقلته إلى إيطاليا . ورحل من هناك إلى كورنثوس . ورافقه أخوه ميجاكس أو لحق به .

وكان انفعال أصدقاء ديون عنيفا . وذاع في سراقوزا أن أفلاطون قد أعدم باعتباره مدبر المؤامرة المشهورة . ولكن ديس حين تحرر ، ما كان ليقبل أن يحسب عدواً للفلسفة . فإن احتفاظه بأفلاطون قد جعل نفى ديون يظهر على أنه مجرد أبعاد وأبعاد وقتي فحسب بل وربما كان يحتفظ به كرهينة . فلم يكن ديون ليحسر على القيام بأى عمل طالما كان يعرف أن أفلاطون تحت رحمة ديس . وأخذ هذا الأخير يلح على أفلاطون إلحاحاً شديداً في البقاء ولكي يجعل هذا الإلحاح على أعظم درجة من الإقناع . سلب أفلاطون كل وسيلة لمغادرة سراقوزا بأن ساقه إلى الأكروبول وجعل له فيه مقاماً . وكان ديس الكبير قد أقام قصره في جزيرة أورتيجي التي يصلها برزخ بالمدينة وهناك كانت كنوزه وعائلته وجنوده المرتزقة . فكانت كل محاولة للخروج من المدينة دون تصريح خاص لا بد وأن تذهب أدراج الرياح . ومن ثم كان أفلاطون ضيقاً سجيناً .

ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان إذ أراد دنيس وهو الرجل الغيور بدافع الزهو ليس إلا أن ينتزع من ديون صداقة أفلاطون وأن يستأثر بها لنفسه ، وحاول أن يكتسب الفيلسوف إلى جانبه ففتح له أبوابه مرات متكررات وأنصت إليه وأخذ يشارك بنفسه في العمل ما وسعه ذلك . ولم يجسر مع ذلك أن ينخرط في مدرسته بصورة جدية ، إذ خشى أن يسلم نفسه بذلك للوصاية التي أعدها له ديون في كثير من البراعة على حد تعبير رجال القصر . وعلى العكس من ذلك تعلق أفلاطون في تخيلاته بأمل إرجاعه إلى إلى الفلسفة والتوفيق بينه وبين ديون يوماً ما .

ولكن تلك النفس المتبدلة ، نفس دنيس المزهو الضعيف انفلتت من قبضة أفلاطون ، وأخيراً وجد دنيس نفسه قد شغل بأمر حرب من الحروب لعلها أن تكون الحرب ضد اللوقيين ، فأطلق سراح الفيلسوف بعد أن تقاضاه وعداً بأن يعود بمجرى ، أن تضع الحرب أوزارها ووعد هو نفسه وإن لم يكن صادق العزم في إنجاز ما وعد ، أن يدعو ديون في نفس الوقت الذي يدعو فيه أفلاطون .

عاد هذا الأخير إذن إلى الأكاديمية فوجد فيها من بين الطلبة الجدد شاباً يبلغ ثمانية عشر عاماً سوف يشرح تلميذه المثابر لمدة عشرين عاماً . ذلك هو أرسطو من استاجيرا ابن أحد أطباء ملك مقدونيا أمينتاس الثاني . وبمجرد أن عاد أفلاطون استأنف العمل فنشر عموره تيتاوس إن لم يكن قد نشرها من قبل ، وألف محاوره السفسطائي . وقد كان لهذه المحاوره هي والدروس التي (١٠ - أفلاطون)

تشرحها فضل توجيه أرسطو نحو المنطق الذي سوف يصبح مؤسسه من بعد.
أما حججه الشهيرة ضد نظرية الحقائق المعقولة أو المثل فقد استعارها أرسطو
كذلك من أفلاطون نفسه ومن محاوره برمنيدس .

وأخيراً ، أصبح للأكاديمية في شخص ديون عضواً مبرزاً . ولما لم يكن
منفياً بصفة رسمية أخذ يتلقى إirاده بأسلوب راتب فكان يصرف بينخ . وقام
بعدة رحلات زار خلالها البليبونيز وأنعمت عليه اسبرطة بحق المواطن وشارك
في الأعياد الكبرى وصادق كثيرين وجدد العهد مع آخرين . وكان أليفاً في
الأكاديمية بوجه خاص . ثم صار مواطناً أثينياً فابتاع قطعة أرض أهداها
لسبزيبوس فيما بعد وتبرع لأفلاطون بنفقات حفل عام . وكان يقطن منزل
كاليبوس الذي راده على أسرار أيلوزيس . سعد أفلاطون ن يرى ديون محاطاً
بطائفة من الشباب الحى إذ أن مزاجه الحاد كان فى حاجة إلى أن يعدل وكانت
صلابته المعتادة فى حاجة إلى أن تلطف .

استمر دنيس فى تلك الأثناء فى حب استطلاع الفلاسفة كما استمر فى استدعاء
الفلاسفة . فحضر من أثينا سفسطائى يدعى ديسكسين وأيشينوس السقراطى
من أسفتوس وهو الذى رأيناه لدى لئيدس فى ميغاريا مع بعض الطلبة
الآخرين . وحضر أرسطوبوس من قورن . وكان ماجنا مرحاً قابلاً على الدوام
لأن يلائم بين نفسه وبين الأحوال التى تحيط به ، وقد بشر ، قبل أبيقورس
بمدة طويلة ، بأن اللذة هى الخير لاسمى . وكان حتماً أصلح رفيق لدنيس . وقد

أفاد منه دون حرج وما كان لأى عمل دنىء أن يروّعه ما دام في مقدوره أن يثأر لنفسه بنكته لاذعة .

ولكن دئيس كان بطمع في أكثر من ذلك . فحاول أن يفرض نفسه على ضيوفه وزوّارة العابرين بما وعاه من فئات العلوم التى تخلفت في ذاكرته من دروس أفلاطون ومحاوراته ومحدثاته . وشرع كذلك في كتابة بحث عميق فلما تولاه الارتباك في سرعة طرق كل وسيلة ممكنة لاستدعاء أفلاطون . فكتب إليه وجعل أرخيتاس وأصدقاؤه من تارنتا يكتبون له وأوفد إليه بعض الصقليين وأخيراً بعث إليه بسفينة لثقلته . ووعد أفلاطون بأن حضوره سيزيل كل ما بينه وبين ديون من مشا كل ولكنه لم يقلع عن إمهال هذا الأخير . وإذا آمن ديون في ثقة كما آمن أرخيتاس كذلك بصدق « فلسفة » دئيس ، ولما كان في نفسه حنين إلى سراقوزا شدد على أفلاطون في قبول الدعوة . وأمام هذا الإغراء رحل أفلاطون غير راغب في الرحيل : فقد بلغ السادسة والستين .

وسرعان ما تقاب عليه دئيس فنجبت جذوة الحكمة التى كاف بها هذا ، أمام خطة في العمل جدّية ومجهود كان عليه أن يأخذ به نفسه . ولم تمنعه ميوله الطيبة نحو ديون من أن يوقف إرسال إراداته . ولما كان الصيف الذى جلب معه الرياح المناسبة للبحار رغب أفلاطون في الرحيل بعد أن تبدد وهمه ، ولكن دئيس أبقاه عن طريق وعود جديدة وكان أفلاطون بدوره يظن أنه سيصل إلى إنقاذ ثروة ديون . ومع هذا فقد نشرت السفن شرعها . ولما زال

هذا الخطر نملك دئیس أفلاطون من جدید ونکت مهده وأقدم فی جراءة علی بیع ممتلكات دیون . وحیا أفلاطون حیاة مملولة « کالمصفور السجین » . واستمر الفیلسوف والطافة یظهرا ن أمام الجمهور بمظهر الأصدقاء . . ولكن آثار غضب دئیس تدخل أفلاطون لصالح هرقلید القدی أنهم بأنارة الفتنة بین صفوف المرتقة . ونمکن هرقلید من الحرب ولكن أفلاطون أقصی إلى نفس موطن المرتقة وكان فی إصلاح الطفیان تهديد لصالحهم الشخصية ومعنی هذا أنهم لم یكونوا لیرضوا قط من ذلك للبشر ومن ثم عاش أفلاطون فی خطر تام . ونمکن لحسن الحظ من إخطار أرخیتاس فأرسلت له حكومة نارتا سفينة ذات ثلاثین مجداف وأثمرت دئیس بأن رحیل أفلاطون أمر لا محیص منه .

٣ - دیون فی سراقوزا

تقابل أفلاطون وديون فی موسم الألعاب الأولمبية فی نهاية هذا الصيف من عام ٣٦٠ . ولم یکن لديون ، بمسد أن تحرر من كل ممتلكاته ، من هون سوى السلاح . هنا وقد عرف أن دئیس كان سیزوج أخته لأبيه ، وهی أرتیه زوجة ديون ، من نيموقراط . فلم یبق أمام ديون إلا الأخذ بالثار . كان أفلاطون قد نزل علی دئیس لیرضاء لديون ورغبة فی مساعدته ، وهو علی استمداد علی الهوام لأن يتدخل إذا سمحت الفرصة محاولا التوفيق ، ولكنه لم یجد فی حالة بحيث نسمع له سنه أو طبیعته بأن یخرج عما هو فيه من هدوء وطمأنينة . ولكن قلبه كان متعلقا بديون . فسمح لطلبة الأكاديمية بالانخراط فی خدمته

وكان في ضمنهم اسبريوس وكاليبوس وأخاه فليوستراتس وإذيموس من قبرص وتطوع من دونهم كثيرون . وتحركت الحملة التي لم تكن تزيد عن ثمانمائة رجل وخمسة سفن في شهر اغسطس من سنة ٣٥٧ .

أحبط ديون خطة فيلستوس الذي وجه همه نحو البحر الادرياتيكي بأن اتخذ طريقه في البحر الأكبر . وهبط على الشاطئ الجنوبي . ولما علم أن دنيس كان في إيطاليا أسرع في اتجاه سراقوزا وجمع خمسة آلاف رجل في طريقه إليها . وفتحت أمامه سراقوزا الأبواب على مصاريحها فدخلها دخول الظافر يؤيده أخوه ميجاكاس وكاليبوس الأثيني وأعاد الحرية للشعب ، فنادى الشعب - بدوره - بديون وميجاكاس « رئيسين مطلعين للجيش » .

حوصر تيموقراط في قلعة اورتيجي ولكن دنيس حضر لنجدته بعد سبعة أيام . وسيطر من هناك على البحر . وأشرف كذلك على المدينة وأخذ يبذر بذور الشقاق بين شعب سراقوزا وديون . هذا وقد كان ديون رئيسا منتخبا . ثم حضر هرقليد ، الذي كان أفلاطون قد أنقذ حياته ، في يوم مامن البلبونيز تصحبه فرقة من الجنود وبعض السفن . فانتخب رئيسا أعلى للقوات البحرية . وكان لديون من الرعونة ماجمله محتج على هذا الانتخاب ثم يعود بنفسه إلى تعين هرقليد في هذا المنصب . وكان هرقليد رأسا مفكرا ولكنه كان دسائسا لا يعمل الدسائس وخطيبا مفوها . وقد تمكن إما عن طريق الصدفة أو عن جدارة من هزيمة أسطول فيلستوس في الميناء الكبرى حين عاد الأسطول من الادرياتيكي . وأسر فيلستوس ثم أُعدم . وفر دنيس إلى

إيطاليا تاركا القلعة في حراسة ابنه الأصغر ابولوقراط .

أضعف هرقليد مركز ديون إلى حد كبير حتى عُزل هذا الأخير والتجأ إلى بلدة ليونتينوا . ولكنه لم يلبث أن عاد منها سراعا استجابة لدعوة أهل سراقوزا وهرقليد نفسه لإنقاذهم : فقد تلقت القلعة مدداً من إيطاليا . وبينما كان الناس مستفرقين في الاحتفال بعيدهم وقد لعبت الخمر برؤوس القواد والجنود أشعل مرتزة دنيس النار في جزء من المدينة وأهرقوا دماء أهلها . وكان ديون يستطيع أن ينقذ هرقليد ولكن سماحة نفسه كفيلسوف أبت إلا أن تعفو عنه . ولم تكن لديه وبالأأسف أية مرونة أو أية مقدرة على استهواء الشعب . فأتى هرقليد أن يجعل منه شخصاً مبنفوضاً . أراد ديون أن يشرع دستوراً معتدلاً نافذاً ، وأراد شعب سراقوزا أن يحكم نفسه وأن يلهو في حرية . وكان ابولوقراط قد ملّ البقاء في القلعة فانتهى به الأمر إلى التسليم ، فلم يعرف ديون كيف يحقق الرغبة التي أفصح عنها الشعب وهي أن يحطم معقل الطغيان هذا وبذلك أفسح مجالاً لارتياح أحسن هرقليد استقلاله فأخذ هذا الأخير يدعو إلى الديمقراطية وإلى توزيع الثروات كما حاك الدسائس لديون لا عند الشعب فحسب بل وعند دنيس أيضاً ، وأعيت ديون (تلك الدسائس) فكان ان أخذ بنصح أصدقائه وسمح باغتيال هرقليد اغتيالاً دينياً بينما كانت لديه فرص عديدة تمكنه من استصدار حكماً قانونياً بإعدامه .

وفوق ذلك فإن مشروعاته نفسها كان من شأنها أن تسوقه إلى الطرق التي يسلكها الطغاة عادة . فلكي يتمكن من فرض إصلاحاته ظل محتفظاً

بالجنود المرتزقة ، ولكي يؤدي لهم أجورهم احتكر أول الأمر أموال أعدائه ثم وجد نفسه بعد ذلك مضطراً لأن يشغل كاهل أنصاره بالضرائب الفادحة . وكان ديون يشق ثقة مطلقة بكاليبوس فاستغل هذا الأخير تلك الثقة ولعل دنيس أن يكون قد أغواه ، وعمل على القضاء على ديون فأثار كاليبوس وأخوه فيلوستراتس ، ضد ديون ، أصدقاء هرقليد القدماء كما أثارا من لم يرضهم الحكم فلما وقع ديون على حقيقة الأمر لم يشأ أن يقاتل قائلاً « إلا أن الحياة لم تعد تحتمل إذا كان على أن أقتل الآن أصدقائي بعد أن قتلت هرقايد . » ثم اغتاله في قصره بمض المرتزقة ممن استأجرهم كاليبوس وذلك عام ٣٥٤ . وكان قد بلغ عامه الخامس والخمسين .

ونودي بكاليبوس بدوره محرراً للشعب وبذلك صارت له السلطة . ثم ثار أصدقاء ديون للمرة الأولى وكان من نتيجة هذا أن خرب أوديموس صريماً في المعركة ، وأهدى إليه أرسطو محاورته « في النفس » . وأخيراً ، توصل هيبارينوس أحد ابني أخت ديون إلى استرداد سراقوزا . وتوقفنا كل من الرسلتين السابعة والثامنة على مبلغ ما كان يساور أفلاطون من قلق ، في تتبعه لهذه الحوادث جميعاً . وتجيب هاتان الرسلتان على أصدقاء ديون الذين يسألونه النصيح بعد ثورتهم الأولى وبعد انتصار هيبارينوس . ولكن هاتين الرسلتين تتوجهان في الواقع إلى الجمهور وهما : دفاع وبيان سياسي في الآن نفسه . يروى فيهما أفلاطون رحلته الأولى وعلاقته بديون ونزوله ضيفاً على قصر دنيس الأصغر مرتين متتاليتين ومحاولاته التي منيت بالفشل في سبيل

تدارك الخصومة الحادة بين ديون ودينس . وذكر فيهما الآمال التي علقها على ديون والتي خيبتها جريمة أحد الخونة . وأخيراً ، يرسم فيهما سبيلاً للسلوك ليتبعه أصدقاؤه في سراقوزا ويصينغ من جديد مبادئ الحكمة السياسية التي لن يتحقق بدونها سلام للدولة .

٤ — مشروع حكومة معتدلة

يميز فلسفة أفلاطون كلها اتجاه مزدوج : الرغبة في الكمال المطلق في المعرفة وفي العمل والتسليم بالقضاء الذي لا مفر منه لكي يتمكن الإنسان على ضعفه من تحقيق أكبر قدر ممكن من هذا الكمال المثالي . إن الرؤية السعيدة والدأب على التحليل والعلم الصادق والرأي الحق ، والهروب من هذا العالم والتكامل بالحقيقة وحياة التأمل والرسالة التي يتعين على الإنسان أن يأخذ نفسه بها ، كلها أشياء جوهرية تواجه كل تفكير فلسفي أو ديني يتوخى التسامي بالإنسان . فلا بد من أن نتشوف الذرى ونهيه أنفسنا لاعتلاء القمم . وإنا لنلج في أفلاطون شاعراً وشخصاً كشفت عن بصيرته الحجب . وإنا لنطالع فيه أيضاً ذلك الحكيم الذي جُبل على الاعتدال وعلى النصف في الحكم ، وتدلنا الرسائل إلى أصدقاء ديون ومحاوره السياسى والقوانين على أن أفلاطون بعد أن تقدمت به السن وحنكته التجارب أخذ يميل شيئاً فشيئاً نحو ما كان يدعو هو نفسه « بالمراتب الثانية » .

إن الغرض من محاوره السياسى هو تعريف رجل الدولة . فإذا أخذنا

النظرية على حرفيتها كان العلم دليلاً لا يخطئ على الحاكم الصالح . وإذا كان الحاكم طبيب المدينة فليس يعنيه أن يتقيد بالقواعد والقوانين التي يحول مافيه من إعنات وصلابة من المؤامة بينها وبين واقع الحياة الجارية . وليس نمة قانون إلا ما لديه من علم محكم مرن صادق على الدوام . وهو فوق ذلك لا يلمس تأييداً من أحد : فله أن يستخدم الإقناع أو القوة حسبما تقتضيه الحاجة فإن خيرية فعله ستكون معياراً لئاله من حق في جميع الأحوال . والحكومة التي يرأسها هي وحدها الحكومة الكاملة : أما الحكومات الأخرى فليست سوى عصابات . ها هي نظرية متسقة تمام الانساق وإنما لنجد أفلاطون الذي كان يكاف بالتوسع فيها يصنف هذه الشيع أو هذه الهيئات الموجودة : فإن وصفه للديمقراطية المتطرفة هو هجاء لا ذع نستشعر فيه أيضاً الأثر السيء الذي تركته محاكمة سقراط في نفس أفلاطون . ولكن أتى لنا بهذا الملك النموذجي؟ « فما حدث قط أن نشأ ملك في المدن كما يحدث في خلايا النحل ثم أصبح بمجرد ظهوره متفرداً بقوة في الجسم وأصاله في النفس » سينصب الناس يقيناً هذا الملك الخير الذي لا يخطئ ولكن أحداً منهم لا يستطيع أن يعتقد أن إنساناً له من القدرة ما يعينه على حمل هذا النفوذ الذي لا حد له . فهم يدركون أن الرئيس الذي لا يقف في سبيله شيء سينتشي بسطوته إلى الحد الذي يفقد معه كل ما لديه من رويّة وما يتحلى به من صفات إنسانية . فلزام علينا إذن أن نخضع لفريق أكثر تواضعاً وأن نقدر حكومة القانون .

وتذهب الرسائل إلى نفس هذا المذهب « إن الخضوع لله أمر مألوف ،

ولكن الخضوع للإنسان يخرج بنا عن جادة الصواب . وترسم هذه الرسائل لأحزاب سراقوزا على اختلاف أنواعها خطة حكومة يسودها الوئام والسلام . فينبغي أن نعيد العمران إلى المدن اليونانية وأن نجتمع بينها في اتحاد كبير . وذلك بأن يحكم سراقوزا ، وهي الأولى بين المدن المتساوية ، ثلاث ملوك يمثل كل منهم أحد الأحزاب التي تتنازع الحكم . تكون لهم سلطات دينية على وجه الخصوص لأن السلطة المدنية سيشرف عليها خمسة وثلاثون من القاعين على رعاية القوانين . وسوف تتحقق بين جميع المواطنين مساواة ومشاركة تامة في الحقوق . أيمدو هذا النظام السخى أن يكون حلاً من أحلام الفيلسوف ؟ .. ومع هذا فهو يشبه إلى حد كبير ذلك النظام الذي حققه تيموليون الكورنثي بين عام ٣٤٥ و عام ٣٣٧ . وقد وجد أفلاطون سياسته المثلى في هذا البطل الذي اعتزل الديكتاتورية وآثر أن يموت كفرد بسيط بعد أن حرر صقلية وأقام ديمقراطية معتدلة في سراقوزا .

وأخيراً ، فقد كرّس أفلاطون السنين الأخيرة من حياته في تأليف سفر ضخيم هو محاوراة القوانين التي لم يتسع له الوقت لأن ينشرها بنفسه . عرض فيها في تفصيل نموذج الحكومة التي وإن لم تكن أفضل الحكومات إلا أنها « تقرب من أفضلها قدر المستطاع » . ومحاوراة القوانين هي قانون دولي ديني مدني وجنائي . ويمهد لكل قانون في هذه المحاوراة بعرض للدوافع والروادع الأخلاقية ، ذلك أن المشرع الأفلاطوني هو مرب : يشرح ويقنع قبل أن يأمر .

لم يتخل أفلاطون عن مثله الأعلى . فما الذى تتطلبه إذن إقامة دستور كامل فى أمرع وقت ممكن ؟ .. الأمر يتطلب وفاقاً بين طائفة شاب فيلسوف ومشرع حكيم . ولكن أفلاطون كان يزداد اقتناعاً بأن الطائفة الفيلسوف لا وجود له وأن السلطة المطلقة من شأنها الفساد . ألم يكن أفلاطون بفكر حقاً فى الماضى البعيد ، ألم يعدل من موقفه حينما أخذ على بعض مشرعى المصور الأولى إغراقهم فى الخيال بقولهم « إن دين الوعد كفيل بأن يمحصر فى حدود عادلة رغبات أمير شاب ورث سلطة يمكن أن تصل به إلى الطغيان ؟ » ألم يكن كذلك يريد « ألا نُقَرِّب سلطة ما لم تكن معتدلة » . وهو يكافح إلى جانب ذلك كل حرية متطرفة . أما الدستور الحكيم فيجب أن يجمع بين الملكية والديمقراطية فى آن واحد ، أما الاعتماد عن هذا الوسط العدل فمعناه أن ننحو نحو الاستبداد كما فعل الفرس أو ننحو كما فعل الأثينيون نحو الفساد المطلق . ويقول أفلاطون عن الديمقراطية الأثينية أنها أصبحت مهزلة مسرحية .

أما الحكومة التى يقترحها على غرار الأرستقراطية اللاقوديمونية وديمقراطية سولون فهى كما كان يُقال فى القرن التاسع عشر حكومة دستورية مفيدة . وتشكوّن من سبعة وثلاثين مشرفاً على القوانين وثلاثة فواد ومجلس شيوخ أعضاؤه ثلاثمائة وستون . ينتخب المواطنون جميعاً كل هيئة من هذه الهيئات . ولكن المواطنين ينقسمون إلى أربع طبقات تبعاً لما يفرض على زواتهم من خرائب ، ولما كان التصويت إلزاماً على الطبقتين الأولىين فقط فإن امتناع الطبقتين الآخرين فى أغلب الأحيان عن التصويت سوف يخفف من حدة

نظام الانتخاب العام . وبدلنا الدور الذي تلعبه الملكية في هذا النظام على أن أفلاطون قد نبذ الشيوعية بل ونبذ الشيوعية الجزئية التي نادى بها في محاوره الجمهورية ، وهو وإن كان لا يزال ينظر إليها باعتبارها المثل الأعلى إلا أنه قد علم أن تطبيقها متعذر « بالنسبة لأناس ولدوا ونشأوا في مثل الحال التي هم عليها اليوم » فعاد إلى إقرار الزواج وجعله فرضاً على كل مواطن . وكانت الأخلاق منحلة في عصره إلى حد لم يجزأ معه على تشريع قوانين تمنع الحب المنافي للطبيعة . ولكنه يحكم عليه حكماً قاسياً وباستناداً إلى إجراءات مترنة يريد أن يخلق رأياً عاماً يرى في هذه الرذيلة عاراً وفحشاً . وإن ما قاله عن الغاية من الزواج وما له من قيمة يجعلنا نفكر في أغلب الأحيان في وصايا الأخلاق المسيحية .

ولكن ويا للأسف لا يزال أفقه محصوراً بالحدود الضيقة التي كانت في المدينة اليونانية ، فهو يذهب إلى حد القول بأن الدولة يجب أن تحتوى خمسة آلاف وأربعين أسرة فقط ، وأن تتخذ الحيلة لمنع تزايد السكان السريع . ولكنه كان يعنى هنا الهجرة بوجه خاص ، ولم يذكر شيئاً كما ذكر في محاوره الجمهورية عن إلقاء الأطفال في العراء أولئك الأطفال الذين لا ترى الدولة حاجة إلى تربيتهم . وأن المرأ ليقشعر حين يصف أفلاطون وأرسطو في غير ما حرج طرقاً عملية كهذه . ولا غرو فقد كانت مثل هذه الطرق شائعة في اسبرطة وفي أثينا نفسها . ويبدو أن الحياة الإنسانية لا يمكن أن تكون لها قداسة قبل أن يفتديها مخلص إلهي .

٥ - الأسس الروحية للدولة

وبالرغم من ذلك أحب أفلاطون الأطفال ورغب كذلك في أن يظل الطفل بين أحضان ظئره وسيتوفر مشرعاً عنا على الاهتمام بصحة الأطفال وعلى ما يلبس التكيف الجسمي والأخلاق من أزمات وسيهتم بالألعاب وبالرياضة البدنية وبالرقص والولائم . نعم سيمنى بهذا كله وسيدخل في التفاصيل ويعتذر مبتسماً عند الحاجة عن تلك التدقيقات الصارمة . وكان يقر بما للكوميديا من فائدة في تقويم الأخلاق والعادات ومع ذلك لم يكن أقل اعترافاً بأن حرفة مؤلفي المهازل حرفة دنيئة حرّمها على المواطنين . وهو وإن لم يستبعد شعراء التراجيديات إلا أنه قصد في وضوح إلى عدم السماح لهم « بأن يروجوا بين الناس تعاليماً تتعارض مع ما يُبشر به الشرع » . فجعل هذه الأشعار تمر إذن « على الرقابة قبل أن تنشر » . وكان يصر على تدريس علم الأعداد والحساب والهندسة والفلك : فيجب على كل رجل حر أن يعرفها معرفة ابتدائية على الأقل . وأخيراً ينشئ أفلاطون وزارة للتعليم : فكان « على الرؤساء أن يقرّعوا في نهاية كل خمس سنوات من بين المشرفين على القوانين من يتوسمون فيه القدرة على تولى أمر تربية الشباب » .

ولم ينس أفلاطون الطابع الفلسفي والإجمالي في التعاليم التي لقنها لحراس المدينة المثلى في محاوراة الجمهورية . وفي هذه المحاوراة كذلك يجب أن « يُبين صفوة الحراس عن ذكاء » . فلا ينبغي عليهم أن يقفوا عند تحصيل العلوم التي

يتلقاها الأحرار في عمق فحسب بل عليهم فوق ذلك أن يلقوا بالاً لما بينها من علاقات متبادلة وخاصة علاقتها بالفضيلة وبالجمال وبالخير . فهو في آخر الأمر العلم الذي يتوج العلوم الأخرى وهو ما يسميه أفلاطون « بالإلهيات » . فعلى رؤساء الدولة أن يبرزوا في هذا العلم « إذ لا يمكن أن نعهد بحكم المدينة إلى أناس لا يعرفون كل ما يمكن معرفته عن الآلهة » . ذلك أن الجهل يمثل هذه الأمور يورث الإلحاد ، وهذا بدوره يحمل على العنف وعلى الاستهانة بالقوانين .

إلا أن هذا الجهل ويا للأسف شديد الانتشار . ويحزن أفلاطون ويحنقه أن يرى من الضرورة بمكان أن تثبت اليوم للشباب وجود الآلهة ووجود العناية الإلهية . أصبح هذا الأمر لا محيص عنه ما دامت هنالك نظريات تدعى أنها نظريات علمية قد لقنت كل غاد أن العالم ليس نتيجة عقل إلهي ولكنه من صنع الطبيعة والصدفة فحسب .

شغلت هذه المسائل أفلاطون منذ أمد بعيد . فهاجها في فقرات من محاورته السفسطائي . وذكر في محاورته فيليبوس « إن نفساً عالية وعقلاً سامياً يدبر نظام هذا العالم » . بل لقد ذهب إلى أبعد من ذلك : فقص في محاورته تيماوس قصة حدوث هذا العالم أو الله المرئي صورة الله المعلوم . إن الله خير ولما كان منزّه عن الحسد ودّ لو يكون كل شيء على صورته إلى أقصى حد . فتناول المادة إذن وهي في فوضى بالغة وظلمة مضطربة ، وهذا ما جُبلت عليه ، فنفخ فيها العقل والغائية وهكذا جعل منها نظاماً وعالماً وهو أحسن عالم وأكمل عالم يمكن .

ومحاورة تباؤس محاورة علمية . يصحح فيها أفلاطون العلم المادى فى زمانه ليفيد منه فى تفسيره للكون وفى تفسيره للإنسان . ويصحح فيها كذلك الكونيات القديمة وبدلاً من أن يحذو حذو هذه الكونيات فيجعل أصل الأشياء مبدأ أسمى غير مروي وبدلاً من أن يقول بسبق السماء والأرض فى الوجود ثم يتبهما بالآلهة وبالعقل الإلهى ، قال أولاً بعلية عليا وهى الله الذى خلق بفضله النفس التى تتصور النظام الأمثل فتفرضه على المادة . ولكننا لا نجد عند أفلاطون تعريفاً واضحاً لهذا الإله كالأذى ينشده القراء الذين ألفوا وضوح اللاهوت المسيحى : فهذا تعريف لم يصل إليه أى مفكر قديم سواء أكان سابقاً له أو لاحقاً عليه . ومع ذلك فإن الله الذى قال به أفلاطون هو الكائن المطلق والعقل الكامل والخير الشامل فى آن واحد . فلئن كان العالم إلهياً فما ذلك إلا « لأن الله يحل فيه » . وهذا الحضور الإلهى هو النظام الذى أوجده عقله المبدع للنظام . « فحيث لا يوجد الله لا توجد إلا الفوضى والتشويش » .

ليس الإيمان بالله لدى أفلاطون مجرد مظهر . وليس هو تظاهر المصلح السياسى حين يلقن الشعب صيفاً ليست صادقة إلا باعتبار فائدتها الاجتماعية . فأفلاطون يؤمن بالله كما يؤمن بحقيقة وعدالة لا تتبدل . ولم يكن أقل من ذلك اعترافاً بما للمعتقدات الدينية من حسنات وضرورات اجتماعية . ولم يقنع كذلك بالدعوة إليها بل أخذ يفرضها فرضاً . فى المدينة التى تصفها محاورة القوانين سيمتبر عدم الاعتقاد فى وجود الآلهة وفى عنايتهم وفى عدالتهم التى

لا تخطئ ضرباً من الإجرام في حق الدولة . وسوف يحكم على المذنب بالسجن أو بالإعدام أو بالنفي المؤبد تبعاً لشناعة الإثم الذي يقتضيه .

ولكن أفلاطون رفيق بغير المؤمنين الذين سلمت طوبيتهم وكانت لهم قلوب لا تعرف الزيف ولا تقرب الظلم . وهو رفيق أيضاً بالسذج ولا يرضن بالعفو إلا على المخادعين المتدينين وعلى السياسيين وعلى الدجالين والسفسطائيين والطغاة . وأخيراً يمان أفلاطون بأعلى صوته أن القوة عاجزة عن أن تفرض الحقيقة إذا لم يعاونها الإقناع بتأييده ، وهو يوقف كتاباً بأكمله من محاوره القوانين هو الكتاب العاشر على النصيح والإقناع . ولما لم يكن يتوجه هنا إلى الفلاسفة وحدهم فهو يتحدث عن الآلهة بقدر ما يتحدث عن إله واحد ويسوق براهين في متناول الجميع : كبراهين نظام العالم وإجماع العالمين . ولكنه يفصل القول في برهان على درجة من العلم أعلى فضلاً عن أنه مؤسس على ظاهرة مرئية : أعني حركة السماء . كل حركة تفترض وجود محرك وتفترض سلسلة الحركات بأجمعها محركاً أعلى . وهذا المحرك لا يتلقى حركته من شيء آخر ، فهو الذي يهب نفسه الحركة . ولما كان كائن واحد هو الذي يستطيع أن يحرك نفسه بنفسه وهو مبدأ الحياة نفسه ومبدأ التنفس نفسه . فهناك إذن نفس تتولى حركات السماء . وهي لا مادية عاقلة ، خيرة . وهي قدسية تشمل عنايتها كل شيء وتنظم كل صغيرة وكبيرة في العالم المادي وفي العالم الأخلاقي في سبيل الخير العام .

هناك قطعاً نضال أبدي بين الخير والشر ، وإن الشر ليظهر غالباً بمظهر

الظافر في الدنيا . ولكن الآلهة يتحالفون في هذا النضال الذي يحتاج إلى « تيقظ بارع » . ولن نذهب إلى الاعتقاد بأن الآلهة قد يحيدون البتة عن سبل العدالة أو يتساحون إن دُفع إليهم مال أو تملقهم الأنهار « شأن الكلاب يستهويها لطف الذئب » . فليس إلى حب الله من سبيل إلا واحدة هي « أن نعمل بكل ما فينا من قوة كي نتشبه به » . وإن القصص ليسوق إلينا حديث ملائكة أظهار كانوا في عهد كرونوس يحكمون بني الإنسان على نفس النسق الذي كان يحكم به بنو الإنسان الحيوانات المتأخرة عنهم في الرتبة . ولم يعد الله ينب عنه أوائك الرعاة الأظهار ، ولكن أصبح الجزء الخالد من نفسنا أعنى العقل يصدر عنه . فالقوانين التي عليها علينا العقل لنتبعها في حياتنا العامة وفي حياتنا الخاصة تقضى بقوانين العناية الإلهية وتنحو مثلاً نحو نشر النظام والعدالة في كل مكان شاخصة إلى الخير الأسمى على الدوام . ألا إن إطاعة هذه القوانين هي بالنسبة للفرد في سلوكه في الحياة وبالنسبة لأولى الأمر في حكم المدينة القاعدة الوحيدة المأمونة . لأن الله وحده هو الذي ينصب الميزان المقسط للأشياء وليس الهوى ولا تعسف بني الإنسان . وكذلك بكرر أفلاطون في هذا المؤلف الأخير وهو دستور الفكر ودستور رجل الدولة، ذكر تلك القاعدة التي تلخص مناحي تفكيره الأساسية وهي « اتبع الله ؛ اقتد بالله » . أما العبارة التي يستعيرها من « التراث القديم » كي يتمكن من التعبير عن حضرة الله الشاملة وعن فعل الله غير المرئي فإنها تنطبق تمام الانطباق على فلسفته نفسها : فالله في فلسفته هو حقاً « البداية والوسط والنهاية » .

حياة أفلاطون بعد وفاته

توفي أفلاطون في سن الثمانين ، عام ٣٤٧ أثناء ولاية تيوفيلوس . وكان ذلك ، كما نخبرنا قصاصو الحوادث ، « العام الثالث عشر للملك فيليب » . إذ أن انتباه التاريخ أخذ يتحول في تلك اللحظة نحو من سلب المدن اليونانية استقلالها الذي طالما ظلت غيورة عليه . واقد انتفعت المدن اليونانية بهذا الاستقلال في خلق مدنية لا مثيل لها ولكنها استخدمته أيضاً في أحداث التمزق الداخلي في حروب أخذت تتجدد على الدوام فأطلق أفلاطون عليها بحق اسم الحروب الأهلية . استمرت هذه الحروب حتى أضحت المتحاررين . وكانت أثينا قد أعلنت الحرب على حلفائها أنفسهم في اللحظة التي اغتصب فيليب منها مدينة أميبوليس عام ٣٥٧ . ثم تلت « الحرب الدينية الحرب الاجتماعية » : نشأت عن نزاع يتعلق بقطعة أرض من ممتلكات هيكل دلف فسبب هذا النزاع انقسام اليونان إلى قسمين وظل هذا الانقسام مستمراً خلال عشر سنوات ابتداء من عام ٣٥٦ حتى عام ٣٤٦ . وقد استخدم فيليب هذا الانقسام في التقدم بغزواته . وكان قد استولى قبل موت أفلاطون بعدة شهور على مدينة أولينثوس التي أساءت أثينا الدفاع عنها رغم تأنيب ديموستين الشديد . وسوف يصبح سيداً لليونان بعد خرونيه بعشر سنوات .

ولئن كان المعصر الذى حياه أفلاطون غنياً بالحوادث فإن حياة أفلاطون نفسها كانت مقتصرة إلى الأحداث . فإذا لم نحكم عليها إلا باعتبار الفوز بالخارجى لبدت كما لو كانت حياة مُعْدِمة . ظل أفلاطون حتى الثلاثين تقريباً ينحو نحو تحقيق ما بدى غاية طبيعية له ونحو المشاركة جدياً فى السياسة الأثينية . ولكن موت سقراط بين له أن كل مجهود للعمل بطريق مباشر مقضى عليه بالفشل . كما فتح هذا الموت عيننا أفلاطون على الإصلاح العقلى والأخلاقى ذلك الإصلاح الذى تتطلبه السياسة المنتجة حقاً كشرط متقدم عليها . فتنع بأن يتوارى فى الأكاديمية وأن يعد عن طريق تعاليمه ومحاوراته ، مستقبلاً بعيداً غير واضح . ولكن طالما تمنى أن يسلك طريقاً أقصر وأن يصل إلى سلطان يكرس نفوذه للفكرة ويحقق الانقلاب المنشود دون نضال . وقد منحت له الفرصة أخيراً لأن يحقق مملكته الإنصاف على هذا النحو . ونعرف كيف استجاب فى سخاء لذلك النداء وكيف تتبع المحاولة فى صلابة وكيف انتهت هذه المحاولة مع دنيس الأصغر ثم مع ديون الطالب الأمثل ، بفشل محزن . ولم تكن الصدمات التى انتابت وطنه الخاص حيث عكف على العمل أخف من ذلك وطأة على نفسه ؛ وهو وإن قسى على وطنه إلى حد ما فى بعض الأحيان إلا أنه كان يحبه إلى حد لم يكن ليتحمل معه انهياره .

كان فشل أفلاطون فى الناحية العملية دية لتأثيره على التفكير على مر العصور . فقد أسس مدرسة للعلم السياسى السكى يكون للمستقبل من يتولون إنقاذ المدينة .

ولم يكن ذلك العلم السيامى فى رأيه إلا تطبقا لما كان يسميه العلم السامى أو الفلسفة التى تأتلف فى وحدتها وتتوج جميع العلوم . كانت الأكاديمية إذن مركزا حقيقيا للدراسات العالية وهى أول نموذج لجامعاتنا الحالية وظلت الأكاديمية قائمة حتى القرن السادس بمعد ميلاد المسيح . ولم تكن فى ذلك الحين سوى مجتمعا صغيرا للوثنيين منعزلا وسط عالم مسيحى . فأغلقت بأمر من جستنيان عام ٥٢٩ . ولكنها كانت قد كومت عددا كبيرا من أساتذة مدرسة الاسكندرية الكبرى التى نُقلت فى القرن السابع إلى القسطنطينية ، فساعدت فى الامبراطورية البيزنطية على حفظ تراث العلم اليونانى وعلى حفظ الروح الأفلاطونية إلى حذما .

وكان مجال هذه الروح لأن تحيا خالصة يكون ضعيفا لو أنها انتقلت عن طريق تراث المدارس فحسب . إذ أن من خلفوا أفلاطون مباشرة وهما : أسبيريوس وأكسينوقراط قد بدأ فى أضعاف هذه الروح . كما أن الأسماء المبرزة بين سلسلة أساتذة الأكاديمية كانت نادرة جدا . ثم إن أفلاطون الذى نظر إلى التعليم باعتباره تبادل بين نفس وأخرى لم يكن ليشق ثقة تامة إلا فى الكلام الحى . ولم تكن مهنة الكتابة بالنسبة إليه إلا هواية نبيلة ، وما الكتاب إلا كنزا للذكريات العذبة للمعلم ولتلاميذه . وعلى ذلك فالمحاورات التى كتبها « وهو يلهو » تلك المحاورات التى تفيض بالشعر الرائع وبمحاربة التفكير لا نظير لها هى بمثابة المتمم الحقيقى لتعاليمه ولعمله . ولم تفتأ المحاورات توجه من أرادت خلقهم أو إصلاحهم من شعراء وفنانين وعلماء ومصلحين .

سياسيين حتى خبت ومضتها الدينية والصوفية في يوم ماوامتصتها ومضة أزكى منها هي ومضة كما ذكر أفلاطون نفسه ، قدسية حقاً .

لم يقصر آباء الكنيسة في بيان الثغرات ومواضع الضعف التي يحتويها المذهب الأفلاطوني : كتسامحها في أمر الإثراك بالله وتقليلها من شأن فصل الخلق بأن قالت بالوجود السابق للمادة وزيفها الأخلاق في الاشتراكية وحين تناضت تناضاً أدبياً خطراً عن الحب الكافر . ولكن أنى لآباء الكنيسة ألا يتلقفوا في لهفة المساعدة التي قدمتها لهم نظريات أفلاطونية متعددة في اللحظة التي كانوا ينشدون فيها حليفاً لهم في عملهم أن في الدفاع أو في الهجوم ؟ .. - ويشير بأسكال بهذه العبارة في مؤلفه « أفكار » حيث يقول « أفلاطون باعتباره ممهداً للمسيحية » . ويقول كل من يوزيب دو كازارى والقديس أوغسطين « أنه أقرب إلينا من أى فرد آخر » . ويقولان كذلك أن « الأفلاطونية دهليز للمسيحية » . ويسر كل من القديس أوستين وكليمان الاسكندري وأورجين والقديس بازيلوس والقديس جريجورى دونازياز أن يجدوا لدى أفلاطون هذا التقديس وذلك التبشير بالحقيقة . وخصص له أيوزيب ثلاث كتب برمتها من مؤلفه « تحضيرات في الإنجيل » وقد استشهد بنصوص من المحاورات بكثرة جداً إلى حد اختفت معه كلماته الخاصة وراء كلماتها .

وجود الله والعناية الإلهية بل وحدث بمقيدة التمثيل والخلق وخالود النفس والصراع الأبدى بين البدن والروح وتسخير قوة الدولة لخدمة الدين ، تلك هي الأشياء التي طاب للآباء أن يجدوها لدى أفلاطون . ويذكرون

في بعض الأحيان أنه إنما اختلس هذه النظريات من موسى ويذكرون في أحيان أخرى أنه إنما توصل إليها عن طريق معاونة إلهية خاصة . وكيف لا يدهشون وفيها من التشابه ما يصل إلى حد التشابه في الأسلوب نفسه ؟ ... فقد طالعوا في محاورة القوانين القول بأن عدل الله يصل أبداً إلى كل شيء مهما بُعد « فلن تنجو منه البتة حتى إذا بلغت من الدقة ما يمكنك من النفاذ إلى أقصى غور الأرض أو كنت من العظم بحيث ترتفع إلى أعالي السماء » . وأعجبهم في الجمهورية صورة العادل مهضوم الحق المضطهد المذبذ . وطاب لهم أن يلاحظوا لدى أفلاطون ولدى القديس بولس معاً « القانونين المتعارضين اللذين يصطرعان في أعضائنا » . وكذلك حينما تذكر محاورة القوانين وتذكر محاورة تيتاوس من قبلها أن ثمة صراع لا يفنى بين الخير والشر وأن لنا من الله حليفاً في هذا الصراع ، أليس في ذلك صياغة للفكرة الرئيسية من كتاب « مدينة الله » ... !

لم تعرف العصور الوسطى اللاتينية في صورة جليلة من محاورات أفلاطون إلا محاورة تيتاوس وتعليقا على هذه المحاورة لا يوضحها على الإطلاق . إنما عرفوا المذهب عن طريق وساطات شديدة الاختلاط أو عن طريق النقد الأرسطي . ولكن القديس بوناونتورا الذي يعتبر الفلسفة « تصاعداً بالنفس نحو الله » قد احتفظ عن طريق القديس أوغسطين بشيء كثير من الروح الأفلاطونية . ولم تكن هذه الروح معدومة على الإطلاق في بناء المذهب التوماوي . ومن أعظم من تأثيرهم القديس توماس إلى جانب أرسطو ، دينيس الملقب بالأريوباغي

ويأخذ عنه تياراً من الأفكار صادرة بدورها عن منابع أفلاطونية وأفلاطونية محدثة . أما مؤلف بنوز وجزلى « انتصار القديس توماس » فيعبر تعبيراً جيداً حينما يضع أرسطو عن عيّن سيد الفلسفة المدرسية وأفلاطون عن يساره ، عن الأثر المشترك وأهمية كل من هاتين القوتين .

إن أهداف المذهب الأفلاطوني أبعد من أن يناها حد لأنه روح أكثر من أن يكون مذهباً وهو يتحد في يسر مع كل تفكير يقصد إلى مهاجمته . ولما كان مذهباً مدققاً في مناهجه ، واضحاً منقّباً في عباراته الهامة فقد رحّب بل أثار راغباً النقد والتصحيح إذ يعتبر أن كل علم إنسانى وكل كمال إنسانى شيء لم يصل إلى حد الاكتمال . وكان حب استطلاعهم الذى لا يعرف النصب يتلطف بكل عمل جديد . وقد سار بطريق في البحث سديدة نحو أفق سلسلة ونحو مثل أعلى هو على الدوام غير متناه في السمو عما يحققه الحاضر . ويعترف هو نفسه بأنه حب لا يعرف الارتواء كلما زاد امتلاكه ازدادت رغبته . وهكذا يظل قابلاً للتقدم المتصل لأنه يجعل من السماء منزلاً للحقيقة العليا ومحلاً للخير الأسمى .

فهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٨٧	٣ - الرؤيا السعيدة والخلود	٢٣ - ٣	البيئة العقلية
٨٩	٤ - أساطير الخلود	٣	١ - المراض
٩٣	٥ - البراهين العقلية	٦	٢ - الأسرة والمدرسة
٩٦	٦ - التجلي الروحي	١٠	٣ - السفطانيون
٩٩ - ١١٤	العلم الإنساني	١٦	٤ - روح العصر؛ الروح المعنوية
٩٩	١ - الإحساس والفكر	١٩	٥ - مذهب الشك
١٠٠	٢ - الكيف	٢٤ - ٢٨	البيئة السياسية
١٠٤	٣ - مهمة العلوم الرياضية	٢٤	١ - السياسة الواقعية
١٠٧	٤ - الحب الفلسفي	٢٦	٢ - نكبة صقلية وحكومة الأربعمئة
١١٢	٥ - تعقب الحقيقة	٢٣	٣ - محاورات سقراط
١١٥ - ١٣٨	المدينة الفاضلة	٤١	٤ - ثورات أثينا ومحكمة سقراط
١١٥	١ - في الاعتزال وفي العمل	٤٩ - ٧٧	تمجيد سقراط
١١٩	٢ - خيال وتطرف	٤٩	١ - سنين الترحل والتأمل
١٢٤	٣ - نحو أحلام أنسب للإنسان	٥٥	٢ - حقيقة سقراط
١٢٧	٤ - مملكة الإنصاف	٦٠	٣ - المحاورات الأولى
١٣٤	٥ - انحراف وتقهقر	٦٦	٤ - جورجياس أو العلم الضروري الوحيد
١٣٩ - ١٦١	خبرة صقلية ودستور المصلح	٧١	٥ - الرحلة إلى إيطاليا وتأسيس الأكاديمية
١٣٩	١ - تنويع طائفة شاب	٧٨ - ٩٨	العلم المثالي
١٤٣	٢ - أفلاطون ودينيس الأصغر	٧٨	١ - الحقائق المعقولة
١٤٨	٣ - ديون في سراقوزا	٨٢	٢ - الرؤيا السعيدة والوجود السابق
١٥٢	٤ - مشروع حكومة معتدلة		
١٥٧	٥ - الأسس الروحية للدولة		
١٦٢ - ١٦٧	حياة أفلاطون بعد وفاته		